"الغرب والبقية": لماذا وكيف هيمن الغرب على العالم إلى الآن؟

إيّان موريس في مواجهة نيل فرغيسون

ورقة بحثية صادرة عن مركز إدراك للدراسات والاستشارات

ترجمة وإعداد: جلال خشيب

مركز إدراك للدراسات والاستشارات

آب/ أغسطس ٢٠١٧

المحتوى

مقدمة ٤
ملخّص كتاب: لماذا يحكم الغرب إلى الآن: أنماط التاريخ وما الذي تكشفه لنا عن المستقبل. للباحث: إيّان موريس. ٥
محتويات الكتاب ٧
الملخص التنفيذي: ٨
مراجعة النظريات المفسرة لإشكالية الكتاب: ١٠
نظريات المدى البعيد الثابت: ١٠
عوامل الثقافة: ١٠
حدود عوامل الثقافة وأهمية العوامل المادية: ١١
مُقاربات نموذج "الحدث قصير المدى:" ١٢
شكل التاريخ وأهمية مقياس التنمية الاجتماعية: ١٤
الكسل، الخوف والجشع: ١٥
البيولوجيا: ١٥
السوسيولوجيا: ١٦
الجغرافيا.. الموقع، الموقع ثمّ الموقع: ١٧
ملخّص كتاب: الحضارة: كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟ للباحث: نيل فرغيسون، ٢٢
تقديم: ٢٤
الملخّص التنفيذي: ٢٤
خاتمة: ٤٦
المتنافسون: ٤٦

ترجمة وإعداد: جلال خشيب، كاتب وباحث جزائري يُباشر دراساته العليا بمعهد دراسات الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، جامعة مرمرة بإسطنبول في تركيا، وبقسم الدراسات الآسيوية كلية العلاقات الدولية بجامعة الجزائر٣. يعمل حالياً كباحث بمركز إدراك للدراسات والاستشارات بمدينة إسطنبول-تركيا.

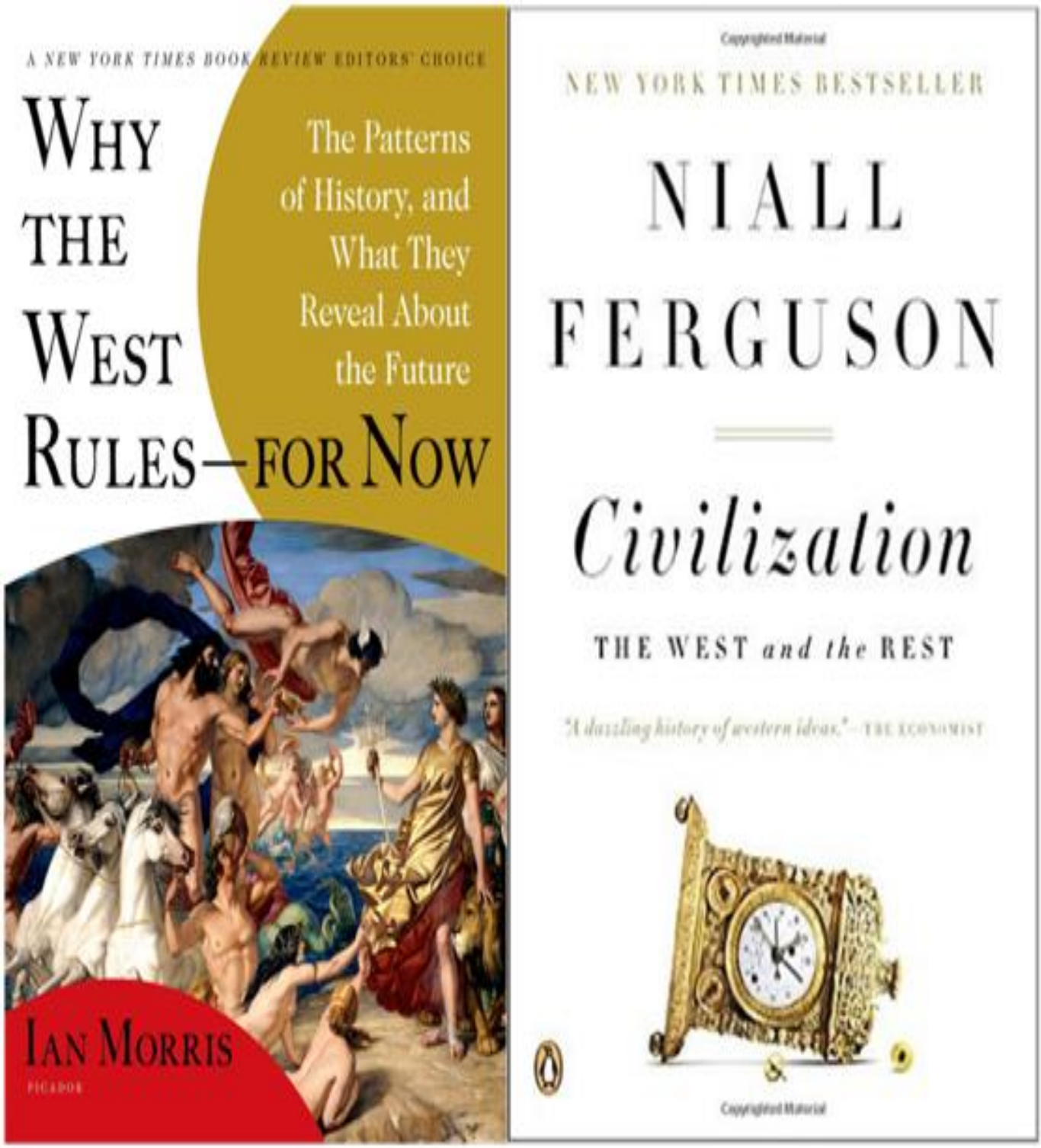

مقدمة

تُحاول هذه الورقة البحثية المطوّلة الإجابة عن سؤال حضاري شاغل: لماذا وكيف هيمن الغرب على العالم إلى الآن؟ وما مستقبل هذه الهيمنة على ضوء التاريخ والحاضر الراهن؟ وهي في الحقيقة عبارة عن ملخصين مُكثّفين لكتابين من الحجم الكبير من تأليف اثنين من أكثر المؤرخين المعاصرين شُهرة وعطاء؛ الأمر متعلّق هنا بكل من البروفيسور إيّان موريس، أستاذ التاريخ بجامعة ستانفورد الأمريكية والمتميّز بتشعّب اختصاصاته المعرفية، وكذا المؤرخ البريطاني الأشهر البروفيسور نيل فرغيسون، كبير الباحثين بجامعة أوكسفورد والذي يشغل أيضاً منصب أستاذ التاريخ بجامعة هارفرد الأمريكية.

سنكون من المحظوظين هنا بأن نأخذ جولة طويلة عبر التاريخ السحيق الممتد إلى آلاف السنين الغابرة، وبأن نطوف مدناً وعواصم حضارية كبرى عرفتها البشرية منذ بدايتها، من طوكيو الميجي إلى بيجين ورحلات البحّارة العظيم جينغ هي، مروراً بمكّة الشريفة، ونزول الوحي وتغيّر مجرى التاريخ، وصولاً إلى هيبة السلاطين العثمانيين الذين قهروا الصليبيين وفتحوا عاصمتهم القسطنطينية، بعدما كانت عاصمة للرومان البيزنطيين. ستصل بنا رحلتنا طبعاً إلى حواضر الغرب؛ إلى تلك اللحظات التي تُقاوم فيها فيّينا حصار العثمانيين، فتصمد وتنتصر، إلى روما وساحات الفاتيكان حيث يحمل رجال الإكليروس فوانيس الظلام والعبودية الدينية، إلى جامعة كونغيسبورغ في بروسيا حيث تُنير أفكار إيمانويل كانط وكذا نضالات مارتن لوثر الإصلاحية عصور أوروبا الوسطى المظلمة، إلى باريس فولتير وسجن الباستيل ورموز الحرية، إلى لندن آدم سميث والماكينة الصناعية، حتّى نصل إلى العالم الجديد المتمثّل بالأمريكيتين ونعايش تلك اللحظة التاريخية التي يضع فيها كريسوف كولومبس قدميه لأوّل مرّة هناك فيتحوّل التاريخ.. إلى الحربين العالميتين وعلوم الذرة والأحياء، إلى صراع الشيوعية والرأسمالية، لنصل أخيراً إلى تلك اللحظة التي أعلن فيها جورج بوش الأب قيام نظام عالمي جديد بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، ظنّاً منه أنّ التاريخ قد توقّف على حدّ تعبير فرانسيس فوكوياما، وأنّ الغد المجهول لن يحمل منافساً جديداً للغرب الليبرالي في شرق العالم حيث تتصاعد قوى جديدة سوف تُغيّر موازين الكون من جديد.

سيتمكّن القارئ، بعدما يُنهي هذه الورقة البحثية، من أن يكتشف جملة العوامل المتسبّبة في انتصار الغرب قروناً من الزمن، في مقابل هزيمة الآخرين. سوف يتمكّن القارئ أيضاً من اكتشاف منطق التاريخ وسننه في صعود الحضارات وأفولها أيضاً. يُقدّم المؤلفان هنا طرحين مختلفين متقاطعين عن هذا الموضوع؛ تميز أحداهما (طرح موريس) بالحفر في التاريخ الغابر قبل الميلاد، ومحاولة الإجابة عن سؤال الموضوع عبر الانتقال بين العديد من التخصّصات العلمية والمعرفية. في حين تميّز الطرح الآخر (طرح فرغيسون) بالكثافة والتركّز والمنهجية التاريخية، محاولاً العثور على إجابة علمية عن هذا السؤال في السنوات الـ ٥٠٠ الأخيرة من عمر البشرية وحسب.

سيكتشف القارئ لهذه الورقة البحثية بنفسه أوجه التشابه والاختلاف والتقاطع بين الطرحين، وإن كان الأمر غير مهمّ في ذاته بقدر ما يتعلّق الأمر هنا أكثر بقدرته على استنتاج روح التاريخ ومنطقه، فيتجهّز ويتعلّم كيفية الاستعداد، وأمّته، للمستقبل المنظور.

ملخّص كتاب: لماذا يحكم الغرب إلى الآن: أنماط التاريخ وما الذي تكشفه لنا عن المستقبل. للباحث: إيّان موريس.

Ian Morris, Why the West Rules--for Now: The Patterns of History, and What They Reveal About the Future, Farrar, Straus and Giroux, Oct 12, 2010, 768 pages.

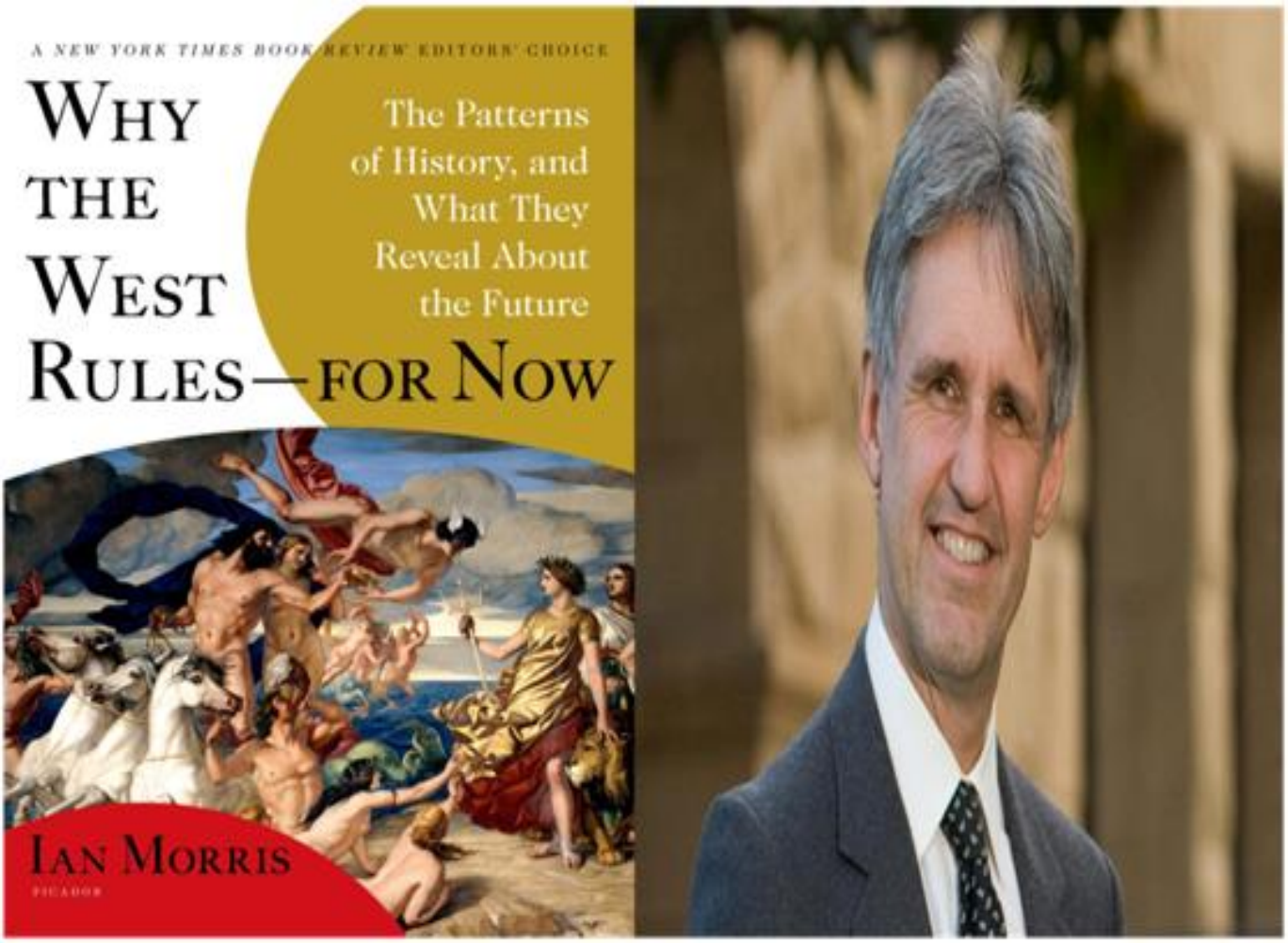

خُطّة الكتاب:

الجزء الأول:

١ .قبل الشرق والغرب.

٢ .الغرب يتولّى زمام القيادة.

٣ .الأخذ بمقياس الماضي.

الجزء الثاني:

٤ .التحاق الشرق.

٥ .العُنق للعُنق.

٦ .الانهيار والسقوط.

٧ .عصر الشرق.

٨ .التوجّه كونياً.

٩ .التحاق الغرب.

١٠ .عصر الغرب.

الجزء الثالث:

١١ .لماذا يحكم الغرب...

١٢ .إلى الآن.

ملحق: عن التنمية الاجتماعية.

المراجع.

لمزيد من القراءات.

شكروتقدير.

مؤشر الملاحظات.

محتويات الكتاب

يقسّم موريس كتابه هذا إلى ثلاثة أجزاء.

يُعالج الجزء الأول (من الفصل الأول إلى الفصل الثالث) أكثر القضايا أهمية: ما هو الغرب؟ من أين يجب علينا أن نبدأ تاريخنا؟ ماذا نعني بمصطلح "الحكم والسيطرة"؟ كيف يمكن أن نُحدّد من يقود أو يحكم العالم؟ .. يتفرّع عن هذا الجزء ثلاثة فصول، يشير الكاتب في الفصل الأول إلى الأسس البيولوجية لقصّة التطوّر أو الخَلق، وتشتّت الإنسان الحديث عبر الكوكب. في الفصل الثاني يُتابع تشكّل ونمو المناطق النواة المركزية الأصيلة في الغرب والشرق بعد عصر الجليد. وفي الفصل الثالث يقوم "بكسر السردية" المتعلقة بتعريف مصطلح التنمية الاجتماعية، ثمّ شرح الكيفية التي سيستخدمها بها في قياس الفروقات بين الشرق والغرب.

في الجزء الثاني من الكتاب (من الفصل الرابع إلى العاشر) يقوم موريس بتتبّع قصّة الشرق والغرب بالتفصيل، متسائلاً باستمرار ما الذي يمكن أن يُفسّر التشابهات بينهما والفروقات. في الفصل الرابع، يبحث الكاتب في صعود أولى الدول، والاضطرابات الكبرى التي دمّرت نواة الغرب في القرون الماضية وصولاً إلى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد.

في الفصل الخامس، يأخذ بعين الاعتبار الإمبراطوريات الكبرى الغربية والشرقية، وكيف تصاعدت مستويات التنمية الاجتماعية عندهم في مواجهة الحدود التي سمحت بها الاقتصاديات الزراعية آنذاك. في الفصل السادس، يُناقش موريس الانهيار الكبير الذي أصاب أوراسيا بعد سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد، ليصل في الفصل السابع إلى نقطة انعطاف مهمّة، مع فتح النواة الغربية لحدود جديدة وتوّليها زمام القيادة على مستوى التنمية الاجتماعية.

مع قُرابة سنة ١١٠٠ قبل الميلاد، تعرّض الشرق مجدّداً لضغوط متعلقة بالحدود التي تتيحها الإمكانيات الموجودة للعالم الزراعي، لكن في الفصل الثامن، ظلّ موريس يُحاجج بالكيفية التي حدث بها ذلك الانهيار الكبير الثاني.

في الفصل التاسع يصف موريس الحدود الجديدة التي أنشأتها إمبراطوريات الشرق والغرب على السهول وعبر المحيطات بعدما تعافت، كما يفحص الطريقة التي أغلق الغرب بها فجوة التنمية في الشرق.

في النهاية، يُعالج الفصل العاشر الطريقة التي حوّلت بها الثورة الصناعية قيادة الغرب إلى حكم وسيطرة، وكذا يُسجّل النتائج الهائلة لذلك.

يحتوي الجزء الثالث من الكتاب على فصلين فقط (الحادي عشر والثاني عشر)، وفيه يلتفت موريس إلى محاولة الإجابة عن السؤال الأكثر أهمية بالنسبة لأيّ مؤرخ: ماذا بعد؟ .. أولاً، يقوم في الفصل الحادي عشر بتجميع كلّ حججه معاً، والتي تقف وراء تفاصيل ما حدث خلال الـ ١٥ ألف سنة الماضية. ثانياً، يقوم بصياغة القوانين، تلك المتعلّقة بالبيولوجيا والسوسيولوجيا، التي حدّدت شكل التاريخ على المستوى الكوني، في حين يقوم، ثالثاً، بصياغة القوانين، تلك المتعلّقة بالجغرافيا، التي حدّدت الفروقات بين التنمية الشرقية والغربية. التداخل بين هذه القوانين هو ما يصنع التاريخ وليس الحوادث قصيرة المدى، ولا ما تُقدّمه مقاربات المدى الطويل الثابت.

وهذا يُعتبر تفسيراً مختلفاً لم يعتد المؤرخون رؤية الماضي عبره، فأغلب الباحثين يبحثون عن تفسيرات في الثقافة، المعتقدات، القيم، المؤسسات، أو بالأحرى يهتمون بالحوادث العمياء بدلاً من المساحات الصلبة للواقع المادي، وقليلون أولئك الذين يلتفتون إلى هذه القوانين.

لكن بعد الأخذ بعين الاعتبار بعض البدائل وردّ بعض منها، يُحاول موريس أن يذهب خطوة أبعد عبر اقتراحه في الفصل الثاني عشر رؤيةً مفادها أنّ قوانين التاريخ تمنحنا في الواقع معنىً ممتازاً لما هو مرجّح أن يحدث في المستقبل. فالتاريخ لن يُقارب على الانتهاء مع مرحلة حكم الغرب. فمفارقة التنمية ومزايا التخلف لا تزالان في طور العمل. وإنّ التسابق بين الابتكارات الذي يقود التنمية الاجتماعية إلى الأعلى، والاضطرابات التي تُجرّها إلى الأسفل لا يزال أيضاً في طور العمل.

لذلك فهو يرى أنّ التسابق صار أسخن بشكل لم يكنه من قبل قط. إنّ أنماط التنمية الجديدة والاضطرابات لا تَعِدُ، أو لا تُهدّد، بتحوّل الجغرافيا وحسب، وإنّما بتحوّل البيولوجيا والسوسيولوجيا أيضاً.

ليس السؤال الأعظم لعصرنا هذا: هل سيستمر حكم الغرب؟ ولكن إن كانت البشرية جمعاء قادرة على أن تنطلق إلى نمط جديد من الوجود قبل أن تعصف بنا كارثة ترمي بالبشرية إلى القاع.. وإلى الأبد.

الملخص التنفيذي:

في كتاب مثير صدر له سنة ٢٠١٠، يناقش البروفيسور إيان موريس، أستاذ التاريخ بجامعة ستافورد، الأسباب الكامنة وراء استمرار الريادة الغربية الكونية إلى الآن، وذلك عبر مقارنة سيرورة التطوّر الحضاري بين الغرب متمثّلاً أساسا في كلّ من أوروبا وشمال القارة الأمريكية، والشرق متمثّلاً في الصين، بالرجوع إلى التاريخ السحيق للبشرية جمعاء. الكتاب يُعبّر حقّاً عن جهد كبير بذله الباحث عبر سنوات طويلة من التحصيل والبحث العابر للتخصّصات العلمية والإنسانية على حدّ سواء.

يفتتح موريس كتابه القيّم هذا بقصة سياسية من العهد الفكتوري، وهو الإنجليزي المنشأ، جرت على الألسن بين أفراد من الأسرة الملكية الحاكمة وبين الصينيين، فيها من الحقيقة كما فيها من الخيال، ليستعرض عبرها الاختراع المذهل الذي بلغه الصينيون قبل الجميع منذ آلاف السنين، ألا وهو السفن البحرية التي اتّسمت بميزات خاصة مكنّتها من عبور المحيطات، أشهرها سفينة كيينغ (Qiying) التي بلغت لندن بداية سنوات الـ١٨٠٠م، حينما كان الإمبراطور داوكونغ (Daogung)يحكم الصين.

بدارسته لتاريخ الصين القديمة يدّعي موريس أنّ الصينيين في القديم لم يكونوا أقل "عنفاً ووحشية" من الغرب، ففي مطلع سنوات الـ١٨٦٠م، وبينما كان الأمريكيون يذبح بعضهم بعضاً بالبنادق والمدافع، ليكرّر الغرب ذلك في أول حرب عالمية، كان الصينيون يفعلون نفس الشيء بالخناجر والحِراب في العالم القديم، ليخلص إلى أنّ النسخة التقليدية للحرب لا تقّل بشاعةً عن نظيرتها في العصر الحديث.

لقد راح نحو ٢٠ مليون شخص ضحية للعبودية والأمراض في آسيا، هذه الفوضى استغلّها الدبلوماسيون الغربيون وجنرالات الحرب هناك ليدفعوا بقوتهم نحو شرق آسيا. على سبيل المثال، وتطلعاً لإنشاء محطة تزويد بالفحم بين كاليفورنيا والصين، فقدْ دفع الكومودور الأمريكي بيري (Perry) باتجاه فتح موانئ في اليابان. وفي سنة ١٨٥٨م أيضاً تمكّنت

بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة من الحصول على تنازلات جديدة من الصين. استغّل الغرب أيضاً الصراع السياسي الداخلي في الصين ليفرض سيطرته، ويُنهي عصر التفوّق الصيني مع بدايات سنوات الـ١٨٠٠م، لتعيش الصين ما يُعرف بعصر الإذلال، ويرتفع الغرب إلى قمّة الريادة العالمية.

أسئلة الهيمنة الغربية:

يطرح موريس في مقدمته التساؤل المحوري الذي يدور حوله هذا الكتاب: لماذا يحكم الغرب إلى الآن؟ فيحاجج بأنّ البداية الفعلية لحكم الغرب الحديث للعالم لم تبدأ مع عقد ١٨٤٠م كما قد يظنّ البعض، فالكلّ يتذكّر كيف خرج الأمريكيون مذلولين من سايغون سنة ١٩٧٥م في حرب فيتنام، وكيف تمكنّت الشركات اليابانية من إخراج الشركات الغربية المنافسة من السوق سنوات الثمانينات من القرن العشرين، حتّى بالنسبة لنا اليوم، فأغلب ما نشتريه نجده مختوماً بختم يقول: "صُنع في الصين."

فبداية الهيمنة الغربية بدأت قبلُ؛ حينما تمكّن الغرب من نشر ثقافته، ولغته، ونمط حياته، ولباسه وأكله في الشرق، فكان ذلك مصدر سطوته الأولى الحديثة. لقد تمكّن الغرب من الحفاظ على هيمنته الكونية منذ العهد الفيكتوري دون عوائق في التاريخ، هنا يضرب موريس مثالاً مناسباً من خلال عبارة قالتها محامية ماليزية للصحفي البريطاني مارت جاكس (Martin Jacques): "أنا ألبس ثيابكم، أتكلّم لغتكم، أشاهد أفلامكم، واليوم أيًّا ما كان التاريخ فلأنّكم ذكرتموه أنتم."

يبدو أنّه من السهولة إثبات بداية حكم الغرب للعالم منذ القرن الثامن عشر أو قبله بقليل، إلّا أنّ الحجّة الصعبة التي يريد موريس إثباتها هنا منذ البداية أنّ الغرب لا يحكم الآن بسبب أنّ الثورة الصناعية (القرن ١٨م) حدثت على أراضيه هناك ولم تحدث في الشرق، بخلاف ما يعتقده أغلب الناس.

فكما هو معروف بدأ الغرب ثورة صناعية مستمرة ومتصاعدة الأفق منذ القرن الثامن عشر، لا سيما في بريطانيا. حينها أطلق رجال الأعمال البريطانيون العنان لطاقات الفحم والبخار لتكون القاعدة الصلبة التي انطلقت منها هذه الثورة الصناعية في كل المجالات، إذ منحت الشركات وسكك الحديد والسفن الحربية الأوروبيين والأمريكيين بعدهم في القرن ١٩م، الإمكانية للدفع بالقوة إلى الخارج كونياً. في حين أنّ الطائرات النقّاثة والحواسيب والأسلحة النووية مكنت خلفاءهم الأمريكيين في القرن ٢١م من توطيد هذه الهمينة الغربية بقوة.

قد يتساءل المرء هنا؛ أين دور القادة المؤثرين الذين عرفهم الغرب في تمكينه من بلوغ مصاف هذه الهيمنة؟ فموريس عند حديثه عن هذه السيرورة التي أخذها التاريخ لا يتجاهل بالمطلق دور هؤلاء القادة المؤثّرين في تمكين الغرب، ويضرب أمثلة على ذلك من وطنه الأم بريطانيا: لو لم يضغط الكابتن إليوت (Illiot) على اللورد مالبورن (Malbourne) سنة ١٨٣٩، لما كان بوسع بريطانيا مهاجمة الصين آنذاك، ولما كانت ستحقّق أيّ امتياز عليها في التاريخ. مع ذلك فإنّ موريس يُقلّص قدر الإمكان من حجم تأثير العوامل الشخصية والقيادية والسياسية في تمكين الغرب من حكم العالم، فالغرب كان دوماً يُحقّق مكاسب ربحية في القرن التاسع عشر. لخص الشاعر البريطاني والسياسي هيلاري بيلوك (Hilaire Belloc) هذه الفكرة في عبارة واحدة سنة ١٨٩٨م قائلاً: "مهما يحدث، فإنّ لدينا حِكمة السلاح، في حين لا يمتلكون هم ذلك."

ليست هذه نهاية القصة بالنسبة لموريس، فالسؤال المطروح هو: لماذا يحظى الغرب بحقيقة "حكمة السلاح" هذه، في حين لا يحظى بها البقية؟ فهذا هو السؤال الأول الذي يُعالجه الباحث، والإجابة عنه ستمكّننا من معرفة سبب حكم الغرب العالم إلى الآن كما يقول.

السؤال الثاني المطروح هو: إلى أيّ مدى وبأيّ الطرق سوف يستمر حُكم الغرب للعالم؟ ماذا سيحدث في المستقبل؟ فرض هذا السؤال نفسه في القرن العشرين مع صعود اليابان كقوة كبرى، وهو اليوم يصير مُلحّاً جدّاً مع بداية القرن الحادي والعشرين مع النمو السريع والضخم للاقتصاد الصيني، الذي من المتوقّع أن يصير الأضخم قبل سنة ٢٠٣٠م متجاوزاً نظيره الأمريكي، فضلاً عن امتلاك الصين (وكوريا الشمالية) الأسلحة النووية؛ الأمر الذي يثير مخاوف الاستراتيجيين الغربيين حول الطريقة التي ستتعامل بها الولايات المتحدة مع الصعود الصيني، ويطرح مجدّداً التساؤل الأكثر أهمية: إلى أيّ مدى سيبقى الغرب متربّعاً على القمة؟

إنّ الإجابة عن سؤال لماذا يحكم الغرب؟ من شأنه أن يمنحنا معنى جيّداً عن الطريقة التي سوف تؤول إليها الأمور في القرن الحادي والعشرين. لا يزعم موريس أنّه أول من طرح هذا السؤال، إذ طُرح هذا السؤال قبل ٢٥٠ سنة؛ أي قبل القرن الثامن عشر الذي حمل نهضة أوروربا الصناعية. حيث بدأ المثقفون الأوروبيون يفكّرون بجدّية بخصوص الصين، والاهتمام بشكل متواضع بالحضارة الآسيوية القديمة منذ القرن السابع عشر.

مراجعة النظريات المفسرة لإشكالية الكتاب:

بعد مراجعته لجميع النظريات التي تُحاول الإجابة عن سؤال الكتاب المحوري: لمَ يحكم الغرب إلى الآن؟ يقوم البروفيسور إيّان موريس بتصنيفها بشكل تقريبي إلى مدرستين فكريتين كبيرتين: نظريات "المدى البعيد الثابت(Long-term lock in) "، ونظريات "الحوادث قصيرة المدى.(Short-term accedent) "

نظريات المدى البعيد الثابت:

الفكرة الأساسية وراء نظريات المدى البعيد هي أنّه منذ زمن سحيق وُجدت عوامل حاسمة جعلت من الشرق مختلفاً بشكل شامل وثابت كلّياً، وهي العوامل ذاتها التي قرّرت أن تحدث الثورة الصناعية في الغرب. يختلف المنظّرون لمقاربة "المدى البعيد الثابت" عند تحديدهم هذه العوامل؛ بعضهم يشير إلى قوى مادية معينة؛ على غرار المناخ أو الطبوغرافيا أو الموارد الطبيعية. بعضهم يشير إلى عوامل أكثر تجرّداً؛ على غرار الثقافة أو السياسة أو الدين.

أمّا أولئك المفضِّلون لعوامل القوى المادية فنجدهم يَعودون بعيداً في التاريخ محاولين إثبات ذلك؛ منهم من يرجع إلى ١٥ ألف سنة من التاريخ، إلى نهاية عصر الجليد، وبعضهم يغوص رجوعاً في التاريخ أبعد. أمّا أولئك الذين يفضّلون عوامل الثقافة، فعادة ما يكون "مداهم البعيد" أقصر، إذ يعود بعضهم إلى ألف سنة، أو إلى القرون الوسطى أو إلى ٢٥٠٠ سنة، إلى عصر مفكر الإغريق الشهير سقراط ومفكر الصين العظيم كونفوشيوس.

عوامل الثقافة:

كل التفسيرات المُقدّمة لهذا السؤال المحوري بين سنتي ١٧٥٠م و١٩٥٠م تقريباً، هي مقاربات نظرية تصبّ في خانة تفسيرات المدى البعيد الثابت، أشهرها تلك التي تقول بالتفوّق الفكري للأوروبيين على الجميع.

منذ نهاية الإمبراطورية الرومانية تقريباً، كان معظم الأوروبيين يُعرّفون أنفسهم بأنّهم مسيحيون أولاً وقبل كلّ شيء، متّبعين تعاليم العهد الجديد. أمّا حينما نأتي إلى تفسير سبب حكم الغرب للعالم إلى الآن، فإنّ ثلّة من مثقفي القرن الثامن عشر يتصوّرون خطّاً تفسيرياً آخرَ لأنفسهم، وذلك بالعودة إلى ٢٥٠٠ سنة ماضية، إلى حضارة الإغريق القديمة التي تمكّن فلاسفتها من إرساء ثقافة فريدة للتفكير، وابتكارهم لمسائل متميّزة وترويجهم لمبدأ الحرية الإنسانية. الأمر الذي جعل كثيراً من الأوروبيين يعتقدون أنّهم تمكنوا من إخضاع الجميع لأنّ ثقافتهم مكنّتهم من فعل ذلك، خلافاً لثقافات الشرق وتقاليدها التي كانت مشوّشة كثيراً، محافظة وهيراركية جدّاً.

يُحاجج موريس أنّ الغرب أدى دوراً مهّماً في نقل "ثقافة التنوير والحضارة" إلى الشرق، وحفّز المثقفين الشرقيين على النضال ليصِلوا بشعوبهم وبلدانهم إلى مستوى الغرب، لا سيما منذ قدوم الكومودور الأمريكي بيري إلى طوكيو، إذ تمّ ترجمة العديد من الأعمال الكلاسيكية التنويرية الفرنسية، وكذا نقل الليبرالية البريطانية إلى اليابانيين ليلحقوا بركب الفكر الديمقراطي الغربي، ومبدأ الفردانية وانعتاق المرأة. ساهم ذلك في تحرير اليابان من الآثار السلبية لكثير من الأفكار القادمة من الثقافة الصينية المتوغّلة في المجتمع الياباني بقوة آنذاك.

مع حلول سنوات الـ ١٩٠٠م بدأ بعض المثقفين الصينيين باتّباع خطّ نُظرائهم اليابانيين، عبر ترجمة عديد من الكتب الغربية عن التطوّر والاقتصاد، حتّى انتهى بهم المطاف أخيراً أن اقتنعوا أنّ حكم الغرب كان طويلَ المدى فعلاً، لكنّه ليس ثابتاً ودائماً إلى النهاية، على غرار المفكر الصيني فوكوزاوا(Fukuzawa) ، فبعد أن تتخلّص الصين من ماضيها المُعيق، سوف يكون بوسعها أن تلحق بالغرب أيضاً.

حدود عوامل الثقافة وأهمية العوامل المادية:

بالنسبة لبعض المفكرين الغربيين المنتمين لمدرسة "المدى البعيد" دوماً، فإنّهم يرون أنّ عامل الثقافة فعلاً جعل الغرب أفضل، إلّا أنّه لا يُعدّ العامل النهائي لشرح حكم الغرب إلى الآن؛ لأنّ الثقافة في حدّ ذاتها لها أسباب مادية؛ فبعضهم يؤمن أنّ الشرق كان حاراً جدّاً ومتصحّراً جدّاً لدرجة أنّه لم يكن ليسمح أن يطوّر الناس هناك ثقافة مبتكرة كما فعل الغرب. أو قد يرجع الأمر أيضاً إلى عدد السكان الكبير هناك، والذي يستهلك الفائض ويُحافظ على مستويات معيشة منخفضة، ويمنع أيّ شيء أو أي قيم كالليبرالية من التطوّر، بل ويكون مجتَمعاً عاجزاً يتطلع إلى ما في يدّ المجتمع الغربي من النشأة.

عامل السياسة موجود أيضاً:

يشير موريس أيضاً إلى بعض التفسيرات "طويلة المدى الثابت"، التي تولي عامل السياسة أهمية باعتباره عاملاً حقيقياً كان قائماً بثبات وراء حكم الغربِ للعالم، مشيراً إلى النسخة التفسيرية الأكثر أهمية وتأثيراً، في نظره، بين جميع التفسيرات الأخرى المرتكزة على نفس العامل؛ ألا هي الأعمال التي قدّمها الفيلسوف الألماني كارل ماركس. فدُولُ الشرقِ، بحسبه، كانت دوماً دُوَلاً ذات سلطة متمركزة ذاتياً، وقوية جدّاً لدرجة أنّها أوقفت عجلة التاريخ، فهي دول دكتاتورية لم تكن لها أي تجربة مثيرة للاهتمام كالتجربة التي سلكها مسار التطوّر الغربي مثلاً، والذي مرّ من اليونان القديمة إلى الإقطاعية إلى الرأسمالية، بل وحدثت في بعض أقاليمه ثورة بروليتارية أيضاً.

بعد متابعة ما سبق هل يمكن أن نستنتج إذن أنّ الشرق عموماً، والصين على وجهٍ أخص، كان عاجزاً ومتخلّفاً عن الغرب إلى هذا الحدّ؟ هنا لا ينكر موريس إطلاقاً أنّ الصينيين مثلاً كانوا متقدّمين جدّاً على الغرب في مجالات عديدة؛ نجده مثلاً

يضرب المثل بمجال المِلاحة البحرية؛ ففي الوقت الذي بدأت فيه الملاحة البحرية الأوروبية بالاكتشافات، كانت الملاحة الصينية متقدّمة جدّاً وعريقة، وكان البحّارة الصينيون أساساً يعرفون سواحل الهند والسواحل العربية وشرق آسيا وربّما أستراليا أيضاً، فحينما أبحر الأدميرال تشينغ هِي (Zheng He) من نانجين (Nanjing) إلى سيريلانكا سنة ١٤٠٥م، قاد قُرابة ٣٠٠ سفينة بحرية معه. وكانت سفنه مُحمّلة بصهاريج ضخمة لنقل المياه الصالحة للشرب، كما تضمّن أسطوله سفناً لنقل الكنوز مزوّدة بدفات توجيه متقدّمة، ومن بين ٢٧ ألف بحّار رافقه كان بينهم ١٨٠ طبيباً وصيدلياً. خلافاً لذلك، حينما أبحر كريستوف كولومبوس سنة ١٤٩٢م من جاديز(Cadiz) ، أبحر فقط بثلاث سفن، كما لم يكن معه لا صهاريج مياه عذبة ولا أطبّاء.

كل هذا يدفع أيّ شخص يزعم بأنّ الهيمنة الغربية تعود إلى الماضي البعيد إلى أن يُراجع نفسه، لكن هناك من يجعل هذه الفكرة في حدّ ذاتها متناسقة مع نظريات المدى البعيد الثابت، على غرار الاقتصادي دافيد لنديس (David Landes) في كتابه "ثروة وفقر الأُمم"، الذي يجدّد فيه الفكرة القائلة بأنّ عامِلي الأمراض والديموغرافيا منحا دوماً أوروبا أفضلية ما على الصين والشرق.

ضرب هنا موريس مثالاً جيّداً؛ فحينما تسبّب عدد السكان الكبير في الصين في دعم الحكومة المركزية الصينية، وقلّص حوافز الحُكّام لاستغلال رحلات تشينغ، كما أنّ الحكام الصينيين لم يكن لهم منافسون، لذلك ارتكزت مخاوفهم حول الكيفية التي يمكن من خلالها أن تتمكّن التجارة من إثراء الجماعات غير المرغوب فيها كالتجّار، بدلاً من تركيزهم على الكيفية التي يجعلون بها أنفسهم أكثر ثراءً. فلأنّ الدولة كانت جدّ قوية، كان بإمكانها أن تقضي على مثل هذه الممارسات المُزعجة. في عقد الـ ١٤٣٠م، قاموا بحظر الرحلات البحرية، وفي عقد الـ ١٤٧٠ قاموا بتدمير سِجِلاّت البَحّار تشينغ، مُنهِين بذلك العصر العظيم للكشوفات الجغرافية الصينية. مع ذلك يُحاجج موريس أنّه لو أُتيحت الفرصة لتشينغ كما أُتيحت لنظيره كولومبوس، لكان من الممكن أن يصل بسُفنه المكسيك، ويُلاقي حاكمها هناك سنة ١٥١٩م كما فعل كولومبوس. إلّا أنّه بناءً على نظريات "بعيدة المدى الثابت"، فإنّ قوى شخصية كثيرة كالأمراض والديموغرافيا جعلت هذه الإمكانية مستحيلة.

لكن مع بداية عقد الـ ١٩٠٠م، بدأ الشرق يفرض نفسه مجدّداً؛ ففي سنة ١٩٠٥م أظهرت اليابان أنّ بإمكان أُممِ الشرق أن تُساعد الغرب في معاركه ضدّ الإمبراطورية الروسية. في سنة ١٩٤٢م دفعت اليابان بالغرب خارج الباسفيك، وبعد هزيمتها سنة ١٩٤٥م غيّرت الاتجاه لتصير اقتصاداً عالمياً عملاقاً. ومنذ سنة ١٩٧٨م أخذت الصين المسار نفسه؛ ففي سنة ٢٠٠٦م مثلاً تجاوزت الصين الولايات المتحدة باعتبارها أكبر دولة باعثة لغازات الكربون في العالم، كِنايةً عن كثرة مصانعها، بل حتّى في ذروة الأزمة المالية سنتي ٢٠٠٨-٢٠٠٩م، استمر الاقتصاد الصيني في النمو بمعدلات كانت تُحسد عليها الحكومات الغربية في أفضل سنواتها.

الأمر الذي يجعل موريس يثير تساؤلاً؛ آخر فبدلاً من "لماذا يحكم الغرب؟" تساءل "هل يحكم الغرب حقاً؟". إذا كانت الإجابة "لا"، فإنّ النظريات بعيدة المدى الثابت هذه، والتي تبحث عن تفسيرات قديمة لسبب حُكم الغرب، تبدو حالياً نظرياتٍ غيرَ مُجديةٍ وبلا هدف. فبسبب هذا اللايقين ذهب مؤرّخون غربيون آخرون إلى تطوير نظريات جديدة مختلفة، تُحاول شرح سبب حكم الغرب العالم إلى الآن، وهي ما يُسمّيها إيّان موريس بنموذج "الحدث قصير المدى."

مُقاربات نموذج "الحدث قصير المدى:"

يعتبر موريس أنّ هذا النوع من المقاربات النظرية يتسّم بكونه معقدّاً جدّاً مقارنة بالنوع الأول من النظريات، كما أنّ هناك تشعّبات واختلافات بينية شديدة بين روّاده. إلّا أنّ هذه المدرسة، إن صحّ التعبير، تتّفِق حول شيءٍ واحدٍ مهم؛ وهو أنّ معظم ما طرحه رواد النوع الأول من النظريات يُعدّ طرحاً خاطئاً، فهيمنة الغرب لم تصل إلى الهيمنة الكونية منذ زمن بعيد إلّا منذ سنة ١٨٠٠م، عشية حرب الأفيون.

كأمثلة على ذلك يُورد موريس مجموعة متنوّعة من الأمثلة المنتمية لهذا النمط الثاني من النظريات، سنشير فيما يأتي هنا إلى أهمّها.

يُعتبر عالما السوسيولوجيا من جامعة كاليفورنيا-إرفين، الأستاذ بين وونغ (Bin Wong) والأستاذ كينيث بوميرانز (Kenneth Pomeranz)، من روّاد هذه النظريات حينما كتبَا كتاباً يحاججان فيه أنّه كلّما نظرنا إلى البيئة، وبِنَى العائلة، والتكنولوجيا، والصناعة أو المالية والمؤسسات، ومستويات المعيشة أو أذواق المستهلكين، سوف نجد أنّ التشابهات بين الغرب والشرق كانت أكبر بكثير من الفروقات الموجودة بينهما، كما كان قائماً في أواخر القرن العشرين.

أندر غوندر فرانك (Ander Gunder Frank) الاقتصادي المشهور، يُحاجج بأنّ الشرق كان سيكون مكاناً أفضلَ لاحتضان الثورة الصناعية من الغرب نفسه، إلّا أنّ حوادث وقعت حالت دون ذلك. فأوروبا، بحسبه، هي ببساطة شبه جزيرة هامشية في نظر النظام العالمي المتمركز حول الصين. فبعدما أصابهم اليأس من بلوغ أسواق آسيا، حيث توجد الثروة الحقيقية، حاول الأوروبيون بعدها لآلاف السنين الماضية القيام بأفضل ما لديهم عبر الحملات الصليبية في الشرق الأوسط، وحينما لم يجدِ ذلك نفعاً، حاول الأوروبيين، على غرار ما فعل كولومبوس، التوّجه غرباً، إلى أمريكا، نحو مواطن الثروة.

يُرجع فرانك صعود الغرب في النهاية إلى "انهيار الشرق" أكثر منه مبادرة بأيدي الأوروبيين الغربيين. كما أنّ نمو السكان بعد سنة ١٧٥٠م، كان له أيضاً نتائج مختلفة بين الشرق والغرب، كما يُحاجج فرانك؛ فقد تسبّب في حدوث استقطاب حول الثروة، وتغذية الأزمات وتثبيط الابتكار في الصين، في حين وَفّر عمالة أرخص للشركات الجديدة في بريطانيا. فحينما سقط الشرق من جهة احتضن الغرب الثورة الصناعية، التي كان من الأحقيّة والعدل أن تحدث في الصين، ولأنّها حدثت في بريطانيا ورِث الغرب العالم بأكمله.

تفسير آخر يُقدّمه الأستاذ جاك غولدستون (Jack Goldstone) من جامعة كاليفورنيا، والذي صاغ مصطلح "مدرسة كاليفورنيا" ليُعبّر به عن المُنظّرين المنشغلين بمقاربات الأمد القصير هناك. يُحاجج الرجل بأنّ كُلاً من الشرق والغرب كانا متساويين تقريباً إلى غاية سنة ١٦٠٠م؛ فكلاهما حُكِم من طرف إمبراطوريات زراعية مع كهنوت كبير يحرس التقاليد القديمة. كما أنّ الأوبئة والحروب وصراع السُّلالات تسبّبت في قيادة الطرفين إلى حافة الانهيار في القرن السابع عشر، إلّا أنّ معظم الإمبراطوريات تعافت وأعادت فرض الفكر الأورثوذكسي بصرامة، في حين رفض بروتستانت شمال غرب أوروبا التقاليد الكاثوليكية. لقد كانت هذه هي الحركة التي وضعت الغرب على مسار الثورة الصناعية بحسب غولدستون.

هناك تفسير آخر يُقدّمه الأستاذ كينيث بوميرانز (Kenneth Pomeranz) من جامعة كاليفورنيا-إرفين، يرى أنّه بحلول سنة ١٧٥٠م، كان كلٌّ من الغرب والشرق ينحوان في اتجاه كارثة إيكولوجية-بيئية حقيقية، فقد تنامى حجم السكان أكثر من نمو التكنولوجيا، وكان الناس في اجتهاد متواصل وبطرق مختلفة لأجل تَوسِعة الزراعة وتكثيفها، وتحريك السلع وإعادة

تنظيم أنفسهم، كانوا على وشك بلوغ حدود الممكن مع تكنولوجيتهم هذه، وكان كلّ المنطق يتوقّع حدوث انخفاض وركود سكاني في القرنين التاسع عشر والعشرين.

لكنَّ آخر ٢٠٠ سنة عرفت نمواً اقتصادياً أكبر من كلّ ما عرفه العالم خلال تاريخه السابق. الحجّة التي يشرحها بوميرانز في كتابه المهم: "الاختلاف الكبير (The Great Divergence) "أنّ الغرب، وبريطانيا في المقام الأول، قد حالفه الحظّ وفقط. أجل إنّها مسألة حظّ، فالحظّ الغربي، مثلما يرى غوندر فرانك أيضاً، بدأ مع اكتشاف الأمريكيتيْن وإنشاء نظام تجاري وفرّ بدوره محفزّات معيّنة للإنتاج الصناعي. إلّا أنّه -خلافاً لفرانك- يرى أنّه في أواخر عقد الـ١٨٠٠م، كان من الممكن للحظّ الأوروبي أن يبوء بالفشل، كما كانت بريطانيا محظوظة لتوَفّر مناجم الفحم على أراضيها، وكذا لتوفّر المكننة.

بعدما يستعرض مختلف المقاربات والنماذج النظرية المفسّرة لسبب حكم الغرب إلى الآن المنتمية لكلتا المدرستين، يُحاجج موريس في النهاية بأنّ كلّ الأطروحات التي قدّمتها هذه النظريات تعاني من سوء فهم لشكل التاريخ، الأمر الذي جعل النتائج المتوصل إليها هناك تتسّم بالجزئية والاختزال وحتّى التناقض، ليقدّم بعدها تصوّره الخاص لشكل التاريخ، والأُسس التي ترتكز عليها نظريته العلمية المتمحورة حول السؤال المركزي لهذا الكتاب: لماذا يحكم الغرب إلى الآن؟

فيما يأتي سنقدّم الخطوط العريضة لنظرية البروفيسور إيّان موريس في هذا الكتاب.

شكل التاريخ وأهمية مقياس التنمية الاجتماعية:

يحاجج إيّان موريس بداية بأنّ كلاً من المدرستين تتفقان أنّ الغرب ظلّ مسيطراً على العالم خلال السنوات الـ ٢٠٠ الأخيرة، لكنّهما تختلفان حول طبيعة العالم ذاك كيف كان من قبل. لذلك فإنّ الحل الوحيد لحسم هذا التضارب بين الفريقين هو الرجوع إلى تلك الحقبة ما قبل الحديثة ودراستها لصياغة الشكل العام للتاريخ وإرسائه. ويرى موريس أنّ معظم الباحثين كانوا دارسين لتخصّصات أُحادية معيّنة كالسوسيولوجيا، والسياسة، والاقتصاد والتاريخ الحديث، وأنّ معظمهم إذا تعاملوا مع الماضي فإنّهم يكتفون بمعالجة الـ ٥٠٠ سنة الماضية، في حين يمرون على التاريخ القديم مرور الكرام، بشكل مختصر جدّاً.

هذا ما يعتبره موريس خطأً فادحاً لن يُقدّم لنا إجابة صحيحة عن سؤال كتابه ذاك، والأصحّ أن ننظر إلى مجمل التاريخ البشري على أنّه حكاية واحدة أرْسَت شكله العام، بدلاً من مناقشة لماذا أخذ التاريخ هذا الشكل أو ذاك، وهذا ما يحاول موريس فعله في هذا الكتاب بحُكم تكوينه المعرفي كعالم حفريات، وباحث في التاريخ القديم ومتخصّص في التاريخ الكلاسيكي لمنطقة البحر المتوسط، وبالضبط في الألفية الأولى قبل الميلاد.

يقول موريس إنّه حينما بدأ في إلقاء نظرة على التاريخ القديم للبشرية، غيرِ المعالَجِ كثيراً، صُدم بمَا اكتشفه بالفعل؛ إذ إنّ هناك توَازياً قويّاً بين ما افترضه الغربيون أنّ لهم تاريخاً فريداً وتجربة فريدة وبين تاريخ بقية العالم، وقبل كل شيء تاريخ الحضارات الكبرى العريقة كالحضارة الصينية والهندية والإيرانية.

يذكر موريس أنّه التحق بتخصّص آخر في تاريخ العلوم الاجتماعية وكذا بمركز الدراسات الأركيولوجية؛ نظراً لإيمانه الشديد بأنّ المقاربات ذات البُعد الواحد لن تكون أبداً ذات فائدة في معالجة سؤاله الأكبر: لماذا حكم الغرب ولا يزال يحكم إلى الآن؟ فهو مؤمن بفكرة تعدّد التخصّصات، وهذا ما جعل طرحه في هذا الكتاب طرحاً متميّزاً وجديراً بالتدارس حقّاً.

فبعد دراسات مُجهِدة وصل إلى المحاجة بأنّ السؤال عن سبب حكم الغرب للعالم إلى الآن، يقودنا حتماً إلى تركيز الاهتمام بمصطلح يراه محورياً؛ وهو مصطلح التنمية الاجتماعية .(Social Development) إنّه يُعطي هذا المصطلح معنى خاصاً، ويقصد به: "جملة الاستعدادات التي تتحلّى بها المجتمعات والتي تمنحها القدرة على إنجاز الأمور بشكل جيّد لتشكيل بيئاتها المادية، والاقتصادية، والاجتماعية والفكرية، تحقيقاً لاحتياجاتها الخاصة". ووضع مجموعة مؤشرات لهذا المعنى الذي أضفاه على مصطلح التنمية الاجتماعية، ووصل إلى أنّ معظم المجتمعات اليوم كانت أكثر تنمية ممّا كانت عليه قبل مئات السنين، وأنّ بعض المجتمعات اليوم أكثر مستوى من حيث التنمية من الأخرى.

إنّ السؤال عن سبب حكم الغرب يعني ضرورة التساؤل عن أمرين: لماذا يُعتبر الغرب أكثر تنمية وتطوراً (أي أكثر قدرة على إنجاز الأمور) من أيّ منطقة أخرى في العالم؟ ولماذا تصاعدت مستويات التنمية الغربية بشكل أكبر خلال الـ ٢٠٠ سنة الماضية مقارنةً بماضيها التاريخي، الأمر الذي مكنّ دُولاً قليلة، من الغرب، من أن تهيمن على الأرض بأكملها؟

إنّ الطريقة الوحيدة للإجابة عن هذين السؤالين ستكون فقط عن طريق قياس مستويات التنمية الاجتماعية ومؤشراتها، لإنتاج رسم بياني يمكّننا من عرض شكل التاريخ كما يقول موريس.

يُحاجج موريس أنّ كلتا المدرستين السابقتين لا تُقدّمان شرحاً جيّداً للتاريخ، وأنّ الإجابة عن السؤال الأول: لماذا كانت التنمية الاجتماعية الغربية أعلى مستوى ممّا كانت عليه في بقية العالم؟ هي إجابة لا ترتبط إطلاقاً بأيّ حدث قريب: فالغرب كان أكثر المناطق تطوّراً في العالم طيلة ١٤ ألف سنة من الـ١٥ ألف سنة الماضية، ولأكثر ألف سنة (من سنة ٥٥٠م إلى سنة ١٧٧٥م) كانت المناطق الغربية ذات سجّل أعلى مستوى. فحُكمُ الغرب للعالم لا يتحدّد سلفاً بمئات السنين، ولا يرجع أيضاً إلى الأحداث الأخيرة.

لن تستطيع كلتا المدرستين أن تجيب أيضاً عن السؤال الثاني: لماذا عرفت التنمية الاجتماعية في المجتمع الغربي مستويات أعلى مقارنة ببقية المجتمعات المبكرة في التاريخ؟ فالمعدّلات الغربية كما يُحاجج موريس لم تعرف معدّلات عالية مذهلة إلّا قرابة سنوات الـ ١٨٠٠م، إلّا أنّ هذا الارتفاع في حدّ ذاته لا يُعبّر إلّا عن مثال عن نمط حديث قريب عن تصاعد وتيرة التنمية المجتمعية.

خلاصة القول إنّ كلتا المدرستين لن تستطيعا أن تجيبا عن سبب حكم الغرب للعالم ما دامتا تتعاملان مع الهوامش، وتنظران فقط إلى مئات من السنوات القليلة الماضية، لذلك كانت الطريقة الوحيدة، كما يكرّر دوماً، هي إيجاد معنى لكل التاريخ البشري في الماضي، باعتباره قصة واحدة.

الكسل، الخوف والجشع:

يقوم موريس بإعادة دراسة التاريخ الإنساني محاججاً بأنّ التاريخ الذي نعرفه تاريخٌ مليءٌ بالمغالطات والتشويه المتعسّف، فكما يقول أحد الكتّاب أمبروسي بيارجه (Ambrose Bierce) بشكل كوميدي: إنّه "من الممكن أن يبدو التاريخ مجرد شيء لعين يعقبه شيء لعين آخر، كخليطٍ فوضَى من العباقرة والبُلهاء، الطغاة والرومانسيين، الشعراء واللصوص، إنجازات خارقة للعادة وقدر كبير من الفسوق". كنتيجة لذلك يلجأ موريس إلى مجموعة من الأدوات التي تُمكِّن المؤرخ من رؤية الوجه الصحيح للتاريخ، وتسمح له بتفسير أحداثه وشرحها بشكل رصين، وهي في المجمل ثلاث أدوات مفتاحية:

البيولوجيا:

تُخبرنا البيولوجيا بحقيقة ماهية البشر، وتكشف لنا أنّه في الأصل شمبانزي ذكي، فنحن جزء من مملكة الحيوان التي تُعدُّ بذاتها جزءاً من إمبراطورية واسعة للحياة، على حدّ تعبير موريس. تمتد هذه المملكة من جنس القِردة الضخمة إلى جنس الأمبيا .(Amebas) ويرى موريس أنّ هذه حقيقة واضحة وينتج عنها ثلاث نتائج مهمة في التحليل:

أولاً، مثل كلّ أشكال الحياة الأخرى، فإنّنا نحن البشر نعيش لأنّنا نستخلص الطاقة من بيئتنا، ونحوّل هذه الطاقة أكثر إلى أنفسنا.

ثانياً، مثل كل بقية الحيوانات الأكثر ذكاءً، فإنّنا نُعدّ خَلقٌاً فضولياً أيضاً، نحن نُدبّر ونُصلح الأمور بشكل مستمر، نتعجب ونتساءل أيضاً إن كانت الأشياء التي نتعامل معها قابلة للأكل، أو بإمكاننا أن نحظى معها بمتعة ما، أو بإمكاننا أن نقوم بتحسينها وتطويرها بشكل ما إلى الأحسن، نحن فقط أفضل في التدبير من بقية الحيوانات؛ لأنّ لدينا أدمغة أكبر وأسرع في العمل مع طيّات دماغية أكثر تمدّنا بقدرة هائلة على التفكير عبرها، كما نتميّز بحبال صوتية مرنة تُمكنّنا من التحدّث بشكل لا نهائي، لدينا أيضاً أصابعُ يدٍ تمكنّنا من القيام بعمل أشياء كثيرة عبرها.

هذا ما يعني أنّ البشر، مثل بقية الحيوانات، من الواضح أنّهم ليسوا سواءَ فيما بينهم؛ فبعضهم يستخلص الطاقة من البيئة أكثر من غيرهم، وبعضهم يُعيد إنتاج الأشياء أكثر من البقية، وبعضهم أكثر فضولاً، أو أكثر إبداعاً، أو أكثر ذكاءً أو أكثر عملية من غيرهم.

ثالثاً، نتيجة لحيَوانيّتنا هذه، يقول موريس، فإنّ مجموعات كبيرة من البشر نجدهم متشابهين سواءً بسواء. فإذا ما أخذنا بشكل عشوائي شخصين من حشد من الناس، فمن الممكن أن يكونا مختلفين مثلما نتصوّر، لكن إذا جمعنا شمل حشدين كاملين من الناس، فسوف يميلان إلى التشابه بقرب أكبر بكثير. وإذا ما قُمنا بعقد مقارنة بين جماعات في ألفيات من الزمن، كما قام موريس بالضبط هنا، فمن المرجّح أن تكون النتيجة تشابهاً كبيراً في النسب الحيوية، والخصوبة، والفضول، والإبداع، والذكاء، والحديث والممارسة العملية بين الناس.

إنّ هذه الملاحظات المُوحية الثلاث، تشرح لنا الكثير عن مسار التاريخ. عرفت التنمية الاجتماعية لآلاف من السنين تنامياً مستمراً، والفضل يعود في ذلك إلى قدرتنا على التدبير وإصلاح الأمور، فالفكرة الجيّدة صارت أكثر جودة وهكذا دواليك.

إلّا أنّ موريس يرى طبعاً أنّ البيولوجيا لن تكون وحدها قادرة على شرح كامل تاريخ التنمية الاجتماعية؛ ففي بعض الأحيان تُصاب التنمية الاجتماعية بالركود لحِقب طويلة من الزمن، دون أن تكون قادرة على التصاعد تماماً، بل إنّها تأخذ أحياناً مساراً تنازلياً حتّى. فمعرفتنا الذاتية بانتمائنا لفصيلة الشمبانزي الذكية وحدها لا تكفي. لذلك كانت الأداة الثانية في تحليله هذا هي السوسيولوجيا.

السوسيولوجيا:

تخبرنا السوسيولوجيا أيضاً، كما يُحاجج موريس، بالذي يُسبّب التغير الاجتماعي، وما الذي يتسبّب فيه هذا التغيّر الاجتماعي أيضاً. يستشهد موريس هنا بمقولة لروبرت هينلين (Robert Heinlein) ذات دلالة وذات علاقة بفكرة التغيّرات الاجتماعية وكيفية حدوثها، يقول: إنّ "التقدّم يكون عادة بفضل شخص كسول يبحث عن طُرق أسهل لإنجاز الأمور". ما يعتبره موريس يُمثّل حقّاً جزءاً من الحقيقة، ومن ثم فالكسل والخمول لا يُعدُّان فقط المصدر الأم للابتكار والاختراع، ولكن "التقدّم" عادةً ما يكون مجرّد كلمة بديلة عمّا يحدث فعلاً. إنّ هذه المقولة تختصر كثيراً ما وصلنا إليه بخصوص

أسباب التغيّرات الاجتماعية. يقول موريس ثيورم" :(Morris Theorem) التغيير يحدث عن طريق أُناس كُسالى، جشِعين ومذعورين من الخوف، يبحثون عن أسهل الطرق وآمنها وأكثرها ربحية لإنجاز الأمور، ونادراً ما كانوا مُدركين لما يفعلونه حقّاً". علّمنا التاريخ أنّ التغيير ينطلق إلى الأمام عندما تكون الضغوط قائمة.

يسعى الأناس الكُسالى الجشعون والمذعورون خوفاً إلى ما يفضّلونه عبر الموازنة بين أن يكونوا مرتاحين، يعملون بأقل ممّا هو محتمل، وبين أن يكونوا في أمان. إلّا أنّ ذلك لا يُعدّ نهايةً للقصة؛ لأنّ نجاح الناس في إعادة إنتاج أنفسهم وتمكين ومكننة الطاقة، حتماً يضع ضغوطاً على الموارد المتاحة لهم (سواء كنّا نتحدّث عن الموارد الفكرية أو المجتمعية أو المادية أيضاً). إنّ تصاعد التنمية الاجتماعية يولّد القوى التي تُقوّض أكثر من التنمية الاجتماعية. يُسمّي موريس ذلك بمفارقة التنمية(The Paradox of Development) ، إذ نسجّل أوّلاً نجاحاً في خلق مشكلات جديدة، ثمّ نجاحاً في تسويتها، ثمّ يؤدي ذلك بدوره إلى خلق مشكلات جديدة وهكذا، فالحياة، كما يقولون، وادٍ من الدموع.

إنّ مفارقة التنمية هذه سارية بشكل دائم، في طور العمل باستمرار، تُواجه الناس وتضعهم أمام خيارات صعبة، غالباً ما يفشلون في مواكبة تحدّياتها، وهنا تؤول التنمية الاجتماعية إلى ركود وحتّى إلى إنهيار. مع ذلك فإنّ عوامل الخمول والخوف والجشع تتحد لتضغط على الناس ليُخاطروا، مُحاولين الابتكار والتجديد لتغيير قواعد اللعبة. على الأقل إذا ما نجح بعض منهم وإذا ما تبنّى معظم الناس إبتكارات ناجحة، فمن الممكن أن يضغط المجتمع عبر الموارد، ومن ثم سوف تحافظ التنمية الاجتماعية على مسار تصاعدي.

واجه الناس وسَوّوا مثل هذه المشكلات بشكل يومي، وهذا السبب الكامن وراء محافظة التنمية الاجتماعية عموماً على تصاعدها منذ نهاية أواخر حقبة عصر الجليد. إلّا أنّ مفارقة التنمية هذه تخلق عند مرحلة ما سقفاً أقصى، سوف يقود حتماً إلى تحوّلات جذرية حقيقية. تُلامس التنمية الاجتماعية هذه الحدود القصوى أو السقوف متسبّبة في حدوث تسابق مُحبط. حالة بعد أخرى سوف نرى أنّه حينما تفشل المجتمعات في تسوية المشكلات التي تواجهها، فإنّها تتعرّض لشتّى أشكال الأمراض، والمجاعات، والأوبئة، والهجرة غير المتحكّم فيها، والمجتمعات الفاشلة تكون مصحوبة عادةً بمزيد من القوى المسبّبة للاضطراب، كالتغيّرات المناخية مثلاً، والتي يُسمّيها جميعاً إيّان موريس بالفرسان الخمسة للدمار. إنّ الانهيار يمكن أن يتحوّل إلى كوارث، ثم إلى قرون طويلة من الانهيارات والعصور المظلمة.

إذن تُقدّم كلٌّ من البيولوجيا والسوسيولوجيا أجوبة عن الأسئلة التي طرحها موريس سابقاً، إنّهما يشرحان معظم شكل التاريخ البشري؛ يشرحان سبب تتصاعد مستويات التنمية عموماً، ولماذا يكون تصاعدها أسرع أو أبطأ في بعض الأزمنة مقارنة بأزمنة أخرى، ولماذا تفشل في بعض الأحيان. يخلص موريس إلى القول بإمكانية تطبيق قوانين البيولوجيا والسوسيولوجيا في أيّ مكان، في كلّ الأزمنة وفي كلّ الأماكن، إنّهما يخبراننا عن البشرية باعتبارها كلاً شاملاً، إلّا أنّهما لا يشرحان لِماذا يكون أداء أُناس في مكان ما مختلفاً بشكل كلّي عن الآخرين الموجودين في أماكن أخرى مختلفة. وهنا يستخدم موريس أداته الثالثة في التحليل للإجابة عن ذلك؛ ألا وهي الجغرافيا، التي يركّز عليها بشكل أكبر.

الجغرافيا.. الموقع، الموقع ثمّ الموقع:

مثلما لاحظَ الكاتب الساخر إدموند بينتلي (Edmund Bentley) سنة ١٩٠٥م، أنّ "فنّ البيوغرافيا [فن السيرة الذاتية] يختلف عن فن الجغرافيا.. البيوغرافيا تتعامل مع رجال الطبقات العليا، في المجتمعات والدول، أمّا الجغرافيا فتتعامل مع الخرائط". لسنوات عديدة هيمن رجال الطبقات العليا على حكايات المؤرخين إلى درجة لا نكاد نميّز فيها بين التاريخ

والبيوغرافيا، إلّا أنّ تغييراً حدث في القرن ١٩م، حين أدخل المؤرّخون فئات أخرى من المجتمع، كالنساء، والأطفال، وأفراد الطبقات الدنيا وغيرهم، ليصيروا جزءاً من الحكاية.

في هذا الكتاب يذهب موريس أبعد من ذلك بكثير، حينما يركّز على الجغرافيا والخرائط ليحدّد طبيعة الفروقات بين البشر والمجتمعات، وأسبابها ومصائرها عبر التاريخ.

يُحاول موريس عبر تركيزه على الجغرافيا إثبات أنّ كلاً من مجتمعات الشرق والغرب مرّت عبر نفس محطات مراحل التنمية الاجتماعية خلال آخر ١٥ ألف سنة مضت، وبنفس النظام، ببساطة لأنّها كانت مأهولة بنفس النوع الإنساني، الذي ولّد وأنتج نفس النمط من التاريخ، مع أنّه يحاول الإشارة إلى أنّ الجميع لم يكن له نفس الأداء في نفس الأزمنة، كما لم يكن له نفس السرعة في الأداء أيضاً. إنّه يحاول أن يؤكّد أنّ البيولوجيا والسوسيولوجيا يشرحان لنا التشابهات الكلّية الكونية، في حين تشرح لنا الجغرافيا الاختلافات الإقليمية. بهذا المعنى فإنّ الجغرافيا تشرح لماذا يحكم الغرب العالم بالضبط.

تُعتبر هذه الفكرة فكرةً غارقةً في القِدَم، تعود على الأقل إلى عصر هيرودوت الإغريقي، أي إلى القرن الخامس قبل الميلاد، فعادةً ما يُعتبر الإغريق بمنزلة آباء التاريخ. يقول هيرودوت: إنّ "البلدان الغضّة الناعمة تُربّي رجالاً غِضاضاً ناعمين". في هذا إشارة إلى وجود خطّ من الحتمية، كان مسؤولاً عن توجيه موطنه لتبوُّءْ تلك العظمة، كما يقول موريس. هناك حجة مشابهة يستشهد بها موريس، ومتعلق ذلك بما كتبه الأستاذ إلسوورث هنتينغتون (Ellsworth Huntington) الجغرافي بجامعة ييل الأمريكية سنة ١٩١٠م، حينما زعم أنّ ولايته المُسمّاة كونِكتيكوت(Connecticut) ، شمال شرق الولايات المتحدة على المحيط الأطلسي، تُعتبر جنّة جديدة لما تتميّز به من خصائص مناخية مثالية تحثّ سكانها على بلوغ العظمة. في مقابل ذلك، فإنّ المناخ الثابت جدّاً لولاية كاليفورنيا يُنتج فقط معدّلات عالية من الجنون.

إذن، فللعوامل الجغرافية آثار بعيدة المدى على الإنسان إلّا أنّها ليست بالأبدية، فالذي يمكن أن يُعتبر أفضلية جغرافية في مرحلة ما من التنمية الاجتماعية، يمكن أن يصير غير ذي معنى أو لا يُعتبر أفضلية أصلاً في مرحلة أخرى. ويحاجج موريس بأنّه في الوقت الذي تقود الجغرافيا التنمية الاجتماعية، فإنّ الأخيرة تُحدّد معنَى لهذه الجغرافيا. لأجل شرح ذلك يعود صاحب الكتاب إلى نحو ٢٠٠٠ سنة مضت، إلى أبرد مرحلة في عصر الجليد الأخير.

كانت الجغرافيا آنذاك مهمة جدّاً، ميلين من الأنهار الجليدية السميكة كانت تُغطي بحجمها معظم شمالي الكرة الأرضية، بشكل جعل الأخيرة لا تكاد تصلح للحياة، ولم يكن هناك إلّا مجموعات قليلة من البشر على مقرُبة من خط الاستواء، كانت تُحصِّل عيشها عن طريق الصيد. ففي ذلك الوقت كان التمييز بين الشمال غير القابل للحياة والجنوب القابل للحياة جغرافياً يُعدّ أمراً حاسماً بالمطلق. إنّ نهاية عصر الجليد غيّرت معنى الجغرافيا بالمطلق؛ فالمنطقة الوسطى بين النقيضين صارت أقلّ برودة، صارت معتدلة مناخياً بحيث منحت، مع ما تتميّز به من خصائص أخرى، فرصة لتطور فصائل النباتات والحيوانات التي يعتمد عليها الإنسان لأجل الحياة، وتسبّب ذلك في وجود غذاء أكثر يحيا عليه الإنسان، الأمر الذي يعني تنامي عدد البشر، ومن ثم تزايد الابتكارات الإنسانية، إلّا أنّ ذلك يتسبّب في الوقت ذاته في حدوث ضغوط أكثر بخصوص الموارد التي تقود هذه العملية، هذا ما يذّكرنا مجدّداً "بمفارقة التنمية" التي تحدّث عنها موريس من قبل، والتي تُباشر عملها هنا أيضاً.

كانت هذه المناطق المحورية التي انطلقت منها الحياة تحظى جميعاً بنمط مشابه من المناخ المعتدل، وكانت أيضاً مناطق مأهولة بالبشر خلال عصر الجليد، إلّا أنّها نمت بطريقة مختلفة كبيرة عن بقية مناطق العالم، واختلف نمو بعضها عن بعض أيضاً.

لقد منحت الجغرافيا أفضليتها للجميع، لكنّها حَبَتْ بعض المناطق دون غيرها بفضائلها أكثر. هذا ما يُعبّر عنه الأستاذ هيلي فلانكس (Hilly Flanks) حينما يقول إنّ غرب أورواسيا حظيَ بشكل فريد بتركيز للنباتات والحيوانات، ومنذ ذلك الحين، كانت جماعات البشر متشابهة جداً، هنا كانت الموارد ثرية والعملية أسهل، هذا ما قاد قُدماً نحو بداية الاستئناس البشري. حدث ذلك قُرابة سنة ٩٥٠٠ قبل الميلاد.

تطوّر ما نُسمّيه اليوم الغرب منذ القِدم وتوسّع من المنطقة النواة الجوهرية في جنوبي غربي آسيا، ليُحيط بحوض المتوسط وأوروبا، وخلال قرون متأخرة بلغ ما نُسمّيه اليوم بأمريكا وأستراليا أيضاً.

إنّ تعريف الغرب بهذه الطريقة سيكون له نتائج معيّنة على التحليل، فهدف موريس في هذا الكتاب هو شرح لماذا تمكّن نمط معين من المجتمعات المنحدرة من النواة الغربية الأصلية،في المقام الأول أولئك القاطنون في أمريكا الشمالية، من الهيمنة على الكون، بدلاً من أن تقوم بذلك مجتمعات أخرى منحدرة من قسم آخر من الغرب، أو مجتمعات منحدرة من إحدى بقية المناطق الجوهرية الأخرى.

يستعمل موريس هنا مصطلح الشرق ليشير إلى كلّ المجتمعات المنحدرة من المراكز النواة الجوهرية الشرقية لأورواسيا. توسّع الشرق أيضاً منذ القدم من منطقته النواة الجوهرية بين النهر الأصفر الصيني ونهر اليانجزي، حيث بدأت عملية تأهيل النباتات نحو سنة ٧٥٠٠ قبل الميلاد، اليوم صار يشير إلى المنطقة الممتدة من اليابان في الشمال إلى دول الهند-الصينية في الجنوب. المجتمعات المنحدرة من بقية المناطق الجوهرية: المناطق الجنوب شرقية فيما يُسمى اليوم غينيا الجديدة، وجنوب آسيا ما يُسمى اليوم بباكستان الحديثة وشمال الهند، والمجتمعات الأفريقية، فيما يُسمّى اليوم بمناطق جنوب الصحراء، وأيضاً المناطق النواة في العالم الجديدة في المكسيك والبيرو، كلّها جميعاً لها تاريخها الخاص والمثير للاهتمام. إلّا أنّ موريس يركّز فقط في كتابه هذا على إجراء مقارنة بين الشرق والغرب، وحجّته في ذلك أنّه ومنذ نهاية عصر الجليد، كانت أكثر المجتمعات تطوّراً في تاريخ البشرية بشكل دائم أحد المجتمعات المنحدرة إمّا من المناطق الأصلية الغربية النواة، أو من نظيرتها الشرقية.

اعتماداً على الجغرافيا، على طريقة فهم هيرودوت، التي تُقدّم تفسيراً تاريخياً ثابتاً طويل المدى، فإنّ عملية التأهيل وترويض البيئة والمحيط، بدأت في المركز الغربي قُرابة سنة ٩٥٠٠ قبل الميلاد، في حين أنها انطلقت قُرابة سنة ٧٥٠٠ قبل الميلاد في الشرق. ظلّت التنمية الاجتماعية قائمة في الغرب قُرابة ألفي عام، مُتفوقة على الشرق، واكتسح الغرب العالم عبر الثورة الصناعية، في الوقت الذي ظلّ فيه الشرق يكتشف الكتابة. إلّا أنّ هذا الأمر لم يحدث حقّاً كما يشير موريس، ولأنّ المزايا الجغرافية هي في نهاية المطاف دوماً دفاع عن الذات، فإنّها تُحافظ على استمرار التنمية الاجتماعية، لكن أثناء جريان العملية تُغيّر التنمية الاجتماعية المعنى الذي تُفيده الجغرافيا. فكلّما تصاعدت مستويات التنمية الاجتماعية يتوسّع نطاق "المراكز النواة"، عبر الهجرة أحياناً ومن خلال ابتكار جديد أو منسوخ عن الجيران أحياناً أخرى. فالتقنيات التي تعمل بشكل جيّد في منطقة مركزية ما، سواء كانت هذه التقنيات عبارة عن زراعة أو نمط حياة في قرية ما أو مدن أو دول أو

إمبراطوريات كبرى، أو صناعة ثقيلة، تنتشر إلى المجتمعات الجديدة والبيئات الجديدة، أحياناً تزدهر هذه التقنيات في شكل إعداد جديد، وأحياناً تأخذ مساراً مشوّشاً، وفي بعض الأحيان تحتاج تعديلاتٍ ضخمة تماماً حتّى تشتغل.

يَعتبر موريس أنّ الغريب في الأمر أن يأتي التقدم الكبير في التنمية الاجتماعية عادة من أماكن حيث تمّ استيراد المناهج والأدوات المستخدمة منها، أو يتم استنساخها من أكثر مناطق نواة تطوراً، إذ لا تعمل هذه المناهج والأدوات بشكل جيّد. يعود السبب أحياناً إلى ذلك الصراع من أجل تكييف مناهج وأدوات قديمة مع بيئات جديدة؛ ممَّا يدفع الناس دفعاً إلى إحداث اختراقات وإنجازات فريدة. أحياناً يعود ذلك إلى العوامل الجغرافية التي لا تكون ذات أهمية كبرى في مرحلة ما من مراحل التنمية الاجتماعية مقارنة بغيرها.

على سبيل المثال، وقبل ٥ آلاف سنة مضت، كانت اللاأفضلية الجغرافية الضخمة وراء خروج كلّ من البرتغال، وإسبانيا، وفرنسا وبريطانيا من أوروبا إلى الأطلسي بحثاً عن مزايا جغرافية أفضل، بالمقارنة بمنطقة بلاد النهرين ومصر، فقد كانت أوروبا أبعد وأسوأ بكثير. لكن قبل ٥٠٠ سنة عرفت التنمية الاجتماعية صعوداً إلى مستويات كبيرة؛ الأمر الذي غيّر معنى الجغرافيا .

صار هناك نمط جديد من السفن البحرية التّي تَعتبرُ عُبُورَ ما كان في السابق أمراً مستحيلاً من محيطات ضخمة، في كل من البرتغال، وإسبانيا، وفرنسا وإنجلترا، بدلاً من السفن المصرية أو العراقية. بدأت السفن الأوروبية تُبحر إلى الأمريكيتيْن، والصين واليابان، فالأوروبيون الغربيون هم من بدؤوا في ربط العالم بعضه مع بعض من خلال التجارة البحرية، كما أنّ التنمية الاجتماعية الأوروبية الغربية ارتفعت بمستوياتها إلى الأعلى، متجاوزة النواة المركز القديمة في شرقي حوض المتوسط.

يُسمّي موريس هذا النمط بـ"مزايا التخلف(The Advantage of Backwardness) "، وهو أقدم من التنمية الاجتماعية نفسها. على سبيل المثال حينما بدأت القرى الزراعية تتحوّل إلى مدن (قرابة المرحلة التاريخية ما بعد سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد في الغرب، وسنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد في الشرق)، صار الوصول إلى تربة خاصة ذات نوعية ومناخ مناسب، والتي كانت تُفضّلها مرحلة الصعود الأولى للزراعة، أقل أهمية من الوصول إلى الأنهار الكبرى التي يمكن استغلالها في ريّ الحقول أو استخدامها كطرق للتجارة. وحينما واصلت الدول في التوسّع والامتداد صار الوصول إلى الأنهار الكبرى أقل أهميّة من الوصول إلى المعادن ولا سيما الحديد، أو طرق التجارة أو مصادر القوة العاملة. فحينما يحدث تغيير ما على مستوى التنمية الاجتماعية، فإنّ الموارد تتطلّب التغيير أيضاً، والمناطق التي تمّ اعتبارها ذات أهمية أقل أو مزايا منخفضة في مرحلة ما قد تكتشف مزايا خاصة في تخلّفها ذاك.

يرى هنا موريس أنّه من الصعب توضيح كيف تعمل مزايا التخلف، ولكنّه يؤكد أنّها ليست جميعاً متساوية القدر والأهمية. مثلا لنحو ٤٠٠ سنة مضت، بدا لكثير من الأوروبيين أنّ المزارع المزدهرة في منطقة الكاريبي سوف يكون لها مستقبل مُشرق مقارنة بمزارع أمريكا الشمالية. بعد فوات الأوان، يُمكننا أن نرى تحوّل هاييتي إلى أفقر مكان في القسم الغربي من الأرض وتحوّل الولايات المتحدة إلى أغنى مكان، فالتنبؤ بمخرجات كهذه يُعد أمراً صعباً جدّاً.

مع ذلك فهناك نتيجة واضحة جدّاً لمزايا التخلّف هذا، وهي أنّ أكثر المناطق تطوّراً داخل كلّ إقليم نواة مركزي كانت المحور الذي يدور حوله هذا الإقليم، وأخذت في التطوّر باستمرار في الإقليم المركزي الجنوبي إلى وديان أنهار بلاد الرافدين ومصر كدول صاعدة، ثمّ في الغرب إلى حوض المتوسط كمنطقة تجارة، ثمّ إلى إمبراطوريات صارت ذات أهمية أكثر.

في الشرق كانت في منطقة بين النهرين الأصفر واليانجزي، إلى حوض النهر الأصفر ذاته، ثمّ في الغرب إلى نهر ويي (Wei) ومنطقة كين.(Qin)

النتيجة الثانية أنّ تقدم الغرب في التنمية الاجتماعية عانى تذبذباً بسبب أنّ الموارد الحيوية؛ النباتات، والحيوانات، والأنهار، وطرق التجارة، واليد العاملة، كانت موزّعة بطرق مختلفة عبر كلّ منطقة نواة في الأقاليم الأخرى.

لم يجعل نمو الدول الغربية خلال الألفية الثانية قبل الميلاد على سبيل المثال البحر المتوسط مجرد طريق رفيع للتجارة، ولكن أيضاً منطقة لقوى الاضطراب. فقُرابة سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد فقدت الدول الغربية السيطرة وعانت من الهجرات، وصارت دولاً فاشلة تُعاني من المجاعات والأوبئة، واضعةً كامل الإقليم في حال انهيار. الشرق الذي لم يكن يحظى بمثل هذا البحر الداخلي، دخل مرحلة انهيار لا يمكن مقارنتها، وبحلول سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد، صار تقدّم الغرب على مستوى التنمية الاجتماعية ضيّقاً بشكل حاد.

عبر ٣ آلاف سنة لاحقة، أدت الجغرافيا بنفس الطريقة دوراً مهمّاً مرّة أخرى، مُغيّرة النتائج باستمرار. فالجغرافيا حدّدت في أيّ منطقة من العالم تتصاعد مستويات التنمية الاجتماعية أسرع، لكن التنمية الاجتماعية المتصاعدة غيّرت في المقابل معنى الجغرافيا دوماً. في نقاط متعدّدة كانت السهوب الكبيرة التي تربط شرق أوراسيا وغربها، الأراضي الثرية بمحاصيل الأرز في الصين، والمحيط الهندي والأطلسي أيضاً كلّها أدت دوراً حاسماً ومهمّاً. وحينما صعد الأطلسي إلى الصدارة في القرن ١٧م، كان هؤلاء الناس الموجودون في الأماكن الجيّدة قد استغلّوا جيّداً ذلك، في البداية فعل ذلك البريطانيون ثمّ تبعهم بعد ذلك الأمريكيون، ليُنشؤوا نمطاً جديداً من الإمبراطوريات والاقتصاد المعتمد على الوقود الأحفوري، وهكذا حكم الغرب.

هذه هي جملة الحجج المتميّزة التي يُصنّفها البروفيسور إيّان موريس تِبَعاً، ليُحاجج المدارس الأخرى ويجيب من ثم عن إشكالية كتابه الكبرى: لماذا يحكم الغرب إلى الآن؟

ملخّص كتاب: الحضارة: كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟ للباحث: نيل فرغيسون،

Originally published as: Civilization: The West and The Rest, By: Niall Ferguson.

خطّة الكتاب:

مقدمة:

سؤال ريسلاس.

الفصل الأول:

المنافسة.

نهران.

الخصي ووحيد القرن.

السباق على التوابل.

المملكة الوسطى.

الفصل الثاني:

العلوم.

الحصار.

ميكروغرافيا.

"تحت المجهر."

عثمان وفريتز.

الرحلات المنتظمة.

من إسطنبول إلى القدس.

الفصل الثالث:

الملكية.

عوالم جديدة.

أرض الأحرار.

الثورات الأمريكية.

مصير الغولاه.

الفصل الرابع:

الطبّ.

نبوءة بيرك.

طاغوت الحرب.

أطباء بلا حدود.

جماجم جزيرة القرش.

العار الأسود.

الفصل الخامس:

الاستهلاك.

ولادة المجتمع الاستهلاكي.

التغريب.

من الغراتايم إلى الثراء.

جنّي الجينز.

ثياب النوم والحجاب.

الفصل السادس:

العمل.

أخلاقيات العمل وأخلاقيات الكلمة.

احصل على تسليتك.

القدس الصينية.

بلاد اللاإيمان.

هل وصلنا إلى نهاية العالم.

خاتمة:

المتنافسون.

تقديم:

يُعدُّ البروفيسور نيل فرغيسون واحداً من أشهر المؤرخين البريطانيين وكبار الباحثين بجامعة أوكسفورد، يشغل منصب أستاذ التاريخ بجامعة هارفرد، وكذا يُدرِّس بمعهد هوفر التابع لجامعة ستانفورد. يسعى فرغيسون في كتابه هذا إلى الإجابة عن سؤال أساسي: لماذا يُهيمن الغرب على العالم إلى الآن؟ وكيف فعل ذلك؟ ليجيب عن ذلك بشكل مفصّل في نحو ٥٠٠ صفحة ينقل فيها القارئ عبر تاريخ سحيق مقارناً فيه بين "الغرب والبقية (The West and The Rest) "على حدّ تعبيره، مُشيداً بالغرب في قدرته على تفعيل ستّة تطبيقات (أو استراتيجيات) حاسمة (The Killer Applications) مكنّته من تحقيق السيطرة على العالم وإدامتها إلى الآن؛ وهي: المنافسة، والعلم، والديمقراطية، والطب، والمجتمع الاستهلاكي وأخلاقيات العمل.

سنعمل هنا على تلخيص محتوى هذه التطبيقات الستّة، وإيضاح الطريقة التي عملت بها في الغرب مقارنة بالشرق، والأسباب التي جعلتها ترفع الغرب إلى مصاف الهيمنة دون البقية لقرون من الزمن الطويل.

الملخّص التنفيذي:

ثمّة تفسيرات متعدّدة للتاريخ، لكن من المؤكد أنّه لا توجد له صيغة قاطعة واحدة، لكنّنا نمتلك ماضياً واحداً فقط. بالرغم من أنّ الماضي قد انتهى لكنّه ضرورة لا غنى عنها لفهم ما نواجهه في الحاضر، وما يُمكن أن يستجلبه لنا الغد وما بعده؛ وذلك لسببين: أوّلهما: يُمثّل سكان العالم الذين هم على قيد الحياة حالياً ما يقارب ٨ بالمئة من كلّ أعداد البشر الذين عاشوا فوق هذه البسيطة. يعني ذلك، وبكلمات أخرى، أنّ أعداد الموتى تفوق كثيراً أعداد الأحياء، وذلك بنسب ١٤ إلى واحد، لكنّنا مع ذلك نتجاهل في أوقات زماننا الخبرات المتراكمة لهذا العدد الكبير من البشر. ثانيهما: يُمثّل الماضي في واقع الأمر المصدر الوحيد الموثوق به لمعرفتنا بشأن الحاضر العابر، وكذلك بشأن الصيَغ المتعدّدة للمستقبل الذي ينتظرنا، التي ستتحقق منها صيغة واحدة فقط. لا يتعلّق التاريخ بكيفية دراستنا للماضي وحسب بل بكيفية دراستنا للزمن ذاته.

إنّ سؤالاً مثل: "لماذا تمكّن الغرب من الهمينة على بقية أنحاء العالم؟" هو سؤال تتطلب الإجابة عنه شيئاً يتعدّى قصةً عادية. ينبغي للإجابة أن تكون تحليلية، وينبغي لها أن تكون مدعومة بدليل، وأن تكون قابلة للاختبار عن طريق سؤال ينافي الوقائع: "لو كانت الابتكارات الهامة التي حدّدتُها هنا لم تحدث، فهل كان الغرب سيتمكن على أيّ حال من السيطرة على بقية أنحاء العالم، وذلك لسبب آخر غفلت عنه أو قلّلت من أهميّته؟ أم أن العالم سيأخذ شكلاً مختلفاً مع وجود الصين، أو ربّما حضارة أخرى في قمّته؟ يجب علينا هنا ألّا نضلّل أنفسنا بأن روايتنا التاريخية، بشكلها الشائع، هي أكثر من رواية معدّلة. سنرى لاحقا أنّه بالنسبة للمعاصرين فإنّ إمكانية هيمنة الغرب لا تبدو هي الأكثر احتمالاً من بين الصيغ المستقبلية التي يتخيلونها". لم تكن الحضارة الغربية جيّدة كلّها؛ لأنّه ما من كاتب جاد يزعم أنّ حكم هذه الحضارة لم يترافق مع شوائب كثيرة. لكنّنا نجد مع ذلك آخرين يُصوّرون أنّ هذه الحضارة لم تحمل معها شيئاً من الخير. يبدو أنّ هذا الموقف موقف سخيف. كانت حضارة الغرب ذات وجهين؛ أي كما كانت كلّ الحضارات العظيمة الأخرى: كانت قادرة على أن تكون نبيلة، وقادرة على أن تكون دنيئة.

في تعريفه لمفهوم الحضارة يرى فرغيسون أنّ مدينة واحدة لا تُشكّل حضارة، "فالحضارة هي أكبر وحدة مفردة للمؤسسة الإنسانية، وهي أرفع حتّى من إمبراطورية وإن كانت أكثر غموضاً منها. يمكننا اعتبار أنّ الحضارات هي، جزئياً، استجابة

مواطنيها العملية لبيئتهم. يشمل ذلك تحديات الغذاء وتوفير المياه والمأوى والدفاع عن أنفسهم، لكن الحضارات ثقافية في خصائصها، وعادة ما تكون، وإن ليس على الدوام، مجتمعات لغة. يُمكننا القول إنّ هناك حضارات قليلة، لكنّها لم تكن متباعدة."

أحصت كارول كويغلي مجموعتين من الحضارات خلال الأعوام العشرة آلاف الأخيرة. اعتبر آدا بوزمان أنّ هذه الحضارات في فترة ما قبل العالم الحديث هي خمس حضارات فقط: الغرب، والهند، والصين، وبيزنطة والإسلام. أمّا ماثيو ميلكو فقد جعل مجموعها اثنتي عشرة وهي التي اختفت سبع منها: حضارة ما بين النهرين، والحضارة المصرية، والكريتية، والكلاسيكية، والبيزنطية، وحضارة أمريكا اللاتينية وحضارة الآنديز. في حين تبقى منها خمس فقط وهي الحضارة: الصينية، واليابانية، والهندية، والإسلامية والغربية. أمّا صاموئيل آيزنستاد فقد جعلها ستّاً بعد أن أضاف الحضارة اليهودية إلى هذه المجموعة.

كان تفاعل هذه الحضارات القليلة فيما بينها، ومع بيئتها الخاصة بها، من أهمّ محركات التغيّرات التاريخية. أمّا الأمر المدهش في هذه التفاعلات فهو أنّ الحضارات الحقيقية (الأصلية) تميل إلى المحافظة على قيمها لفترات طويلة جدّاً من الزمن، وذلك بالرغم من التأثيرات الخارجية. قال فرنان بروديل: "الحضارة هي في واقع الأمر أطول قصّة من بين كلّ القصص.. تتمكّن الحضارة.. من الاستمرار عبر سلسلة من الاقتصاديات والمجتمعات."

يطوف فرغيسون بعدها بالقارئ عبر مئات السنين والنقاط الحضارية المضيئة في تاريخ البشرية، فيقول إنّه: "لو كان بإمكاننا في العام ١٤١١م الدوران حول الكرة الأرضية، فلربّما كنّا سوف نُدهَشُ كثيراً بنوعية حياة سكان الحضارات الشرقية". كانت المدينة المحرمة قيد البناء في ذلك الوقت في مينغ بيجينغ، في حين أن العمل كان ما زال جارياً في إعادة فتح القناة الكبرى وفي تحسينها. أمّا في الشرق الأدنى فإنّ العثمانيين كانوا يُطبقون على القسطنطنية التي سقطت بأيديهم أخيراً في العام ١٤٥٣م. كانت الإمبراطورية البيزنطية تلفظ آخر أنفاسها في ذلك الوقت. لكن موت أمير الحرب تيمور (تيمورلنك) في العام ١٤٠٥م، أزال التهديدات المميتة والمتكرّرة لتلك الجماعات الغازية الآتية من آسيا الوسطى، وهي التي كانت نقيض الحضارة. أمّا بالنسبة إلى الإمبراطور يونغل (Yongle) والسطان العثماني مراد الثاني فكان المستقبل زاهراً.

في المقابل كانت أوروبا الغربية في العام ١٤١١م تبدو وكأنّها في حال تراجع بائس، وكانت لا تزال تسترد عافيتها بعد الآثار المدمرّة التي خلّفها الموت الأسود (الطاعون) الذي قلّص عدد السكان إلى النصف، خلال تقدّمه شرقاً ما بين العامين ١٣٤٧ و١٣٥١م، كما بقيت المنطقة تعاني سوء الأحوال الصحية والحروب المستمرة.

أمّا في إنجلترا فقد فرغ هنري الرابع من قلب ريتشارد الثاني سيئ الحظ وقتله. وكانت فرنسا عالقة في ذلك الوقت في قبضة حروب مميتة ما بين أتباع دوق بوروندي وأولئك الذين اغتالو دوق أورليانز. أمّا حرب المئة عام ما بين إنجلترا وفرنسا فقد كانت على وشك أن تبدأ من جديد. الممالك المشاكسة الأخرى الواقعة في أوروبا الغربية؛ أي الأراغون والكاستيل والنافار والبرتغال وإسكتلندا، بدت أفضل حالاً بقليل. أمّا غرناطة فقد كانت لا تزال تحت حكم ملك مسلم، في حين كان الملك الإسكتلندي جيمس الأول سجيناً في إنجلترا، بعد أن ألقى قراصنة إنجليز القبض عليه. لكن، أكثر أجزاء أوروبا ازدهاراً في ذلك الوقت كانت المدن-الدول الواقعة في شمالي إيطاليا: فلورنسا، وجنوا، وبيزا، وسيّنا وفينيسا.

كانت أمريكا الشمالية في القرن الخامس عشر قفراً، وفي حالة من الفوضى مقارنة بممالك الآزتيك والمايا والإنكا الواقعة كلّها في أمريكا الوسطى والجنوبية، وهي الممالك التي انتشرت فيها المعابد العالية والطرقات التي تخترق الجبال الشاهقة.

سنُلاحظ في نهاية جولتنا في العالم أنّ فكرة احتمال هيمنة الغرب على بقية أنحاء العالم معظم السنوات الخمس مئة المقبلة هي فكرة مغرقة في الخيال، إلّا أنّ هذه الهيمنة تحقّقت بالفعل.

تمكنّت الدول الصغيرة الواقعة في غربي أوروبا –ولسبب ما، بدءاً من أواخر القرن الخامس عشر، وبالرغم من استعاراتها اللغوية المتنوعة من اللاتينية (وبعض الإغريقية) وبعد أن تبنّت ديانة مستقاة من تعاليم رجل يهودي من الناصرة، وبالرغم من دَيْنها الفكري الذي تمثّل بعلوم الشرق في الرياضيات وعلم الفلك والتقنية، تمكنت تكوين حضارة قادرة ليس على قهر الإمبراطوريات الشرقية العظيمة وإخضاع أفريقيا والأمريكيتين وجنوب آسيا فحسب، بل تمكنّت كذلك من تحويل الشعوب في أنحاء العالم كافة إلى طريقة الحياة الغربية، وهو تحويل تحقّق بالكلمة أكثر ممّا تحقّق بواسطة السيف.

يستطرد فرغيسون مؤكدّاً وجود أشخاص من بيننا يناقضون ذلك الطرح، وهم يزعمون أنّ كلّ الحضارات متساوية بمعنى ما، وأنّ الغرب لا يستطيع ادعاء التفوق على شرق أورواسيا على سبيل المثال. "تبدو هذه النسبوية سخيفة بشكل واضح". لم تتمكن أيّ حضارة سابقة من تحقيق هيمنة على بقية أنحاء العالم مثل تلك التي تمكّن الغرب من تحقيقها. شكلّت القوى التي أصبحت استعمارية بعد ذلك في أوروبا نحو ١٠ بالمئة من مساحة برّ العالم في العام ١٥٠٠م، ونحو ١٦ بالمئة على الأكثر من عدد سكانه. أمّا بحلول العام ١٩١٣م، فقد تمكنّت إحدى عشرة إمبراطورية غربية من السيطرة على نحو ثلاثة أخماس مساحة اليابسة والسكان، كما تمكّنت من إنتاج أكثر من ثلاثة أرباع (أي ٧٩ بالمئة، وهو رقم يثير الدهشة) مجمل الإنتاج الاقتصادي العالمي. بلغ معدّل الأعمار المتوقعة في إنجلترا في ذلك الوقت نحو ضعفين ممّا كان عليه في الهند، كما تمثّلت مستويات المعيشة العالية في الغرب في النوعية الفضلى من الوجبات الغذائية، حتّى بالنسبة إلى العمال الزراعيين، وكذلك في القامات الأطول حتّى بين الجنود العاديين والسجناء.

تتعلّق الحضارة بالمدن كما رأينا سابقاً، تمكّن الغرب من احتلال الذروة حتّى في هذا المجال. كانت بيجينغ في العام ١٥٠٠م، بحسب علمنا، أكبر مدينة في العالم حيث بلغ عدد سكانها ما بين ٦٠٠ ألف و٧٠٠ ألف نسمة. كانت باريس هي المدينة الأوروبية الوحيدة من بين كبرى مدن العالم في ذلك الوقت، كما أنّ عدد سكانها كان أقل من ٢٠٠ ألف نسمة. أمّا عدد سكان لندن فلربّما كان أقل من ٥٠ ألف نسمة. كانت نسبة تطوير الأراضي في شمال أفريقيا وأمريكا الجنوبية أعلى ممّا كانت عليه في أوروبا. انعكست تلك الوقائع بشكل مذهل مع حلول العام ١٩٠٠، فمن بين أكبر عشر مدن في العالم في ذلك الوقت كانت واحدة منها فقط آسيوية، وكانت طوكيو هي تلك المدينة. أمّا كبرى مدن العالم في تلك السنة فقد كانت لندن بسكانها الذين وصلت أعدادهم إلى نحو ٦,٥ ملايين نسمة.

لم تنته السيطرة الغربية مع سقوط الإمبراطوريات الأوروبية. أدّى صعود الولايات المتحدة إلى توسيع الفجوة الفاصلة ما بين الغرب والشرق، وهكذا كان الأمريكي المتوسط الحال أغنى من نظيره الصيني بثلاث وسبيعن مرّة في العام ١٩٩٠.

يُضاف إلى كلّ ذلك أنّه اتّضح، في النصف الثاني من القرن العشرين، أنّ الطريقة الوحيدة لردم الهوة في المداخيل الآخذة في الاتساع هي أن تتّبع المجتمعات الشرقية مِثالَ اليابان، التي تبنّت أسلوب ونمط الإمبراطوريات الغربية الإحدى عشرة (النمسا، لجيكا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وهولندا، والبرتغال، وإسبانيا، وروسيا، والمملكة المتحدة والولايات المتحدة). كانت فرنسا والبرتغال وإسبانيا، من بين هذه الإمبراطوريات، تحتفظ بأشياء تماثل الحالة التي كانت عليها في مطلع القرن العشرين. لقد أصبحت الحضارة الغربية نوعاً من النموذج الذي يسعى بقية العالم إلى تنظيم نفسه على مثاله.

كانت هناك بطبيعة الحال، قبل عام ١٩٤٥م، مجموعة متنوعة من النماذج التطويرية أو أنظمة التشغيل بحسب لغة المعلوماتية، التي كان بإمكان المجتمعات غير الغربية تبنّيها. لكن الأكثر جاذبية من بينها كان ذا منشأ أوروبي: الرأسمالية الليبرالية، والاشتراكية القومية والشيوعية السوفياتية. أدّت الحرب العالمية الثانية إلى القضاء على النموذج الثاني بالرغم من أنّه استمر تحت تسميات أخرى في بعض الدول النامية. كما أدّى انهيار الإمبراطورية السوفياتية ما بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩١م إلى القضاء على النموذج الثالث.

"أعتقد أنّه ليس مغالاةً في حبّ أوروبا ولا مغالاة في معاداة الشرق"، قولنا إنّ نهوض الحضارة الغربية هو أهّم ظاهرة تاريخية وحيدة، بعد ظهور المسيح عليه السلام، في النصف الثاني من الألفية الثانية. إنّها تصريح بما هو واضح وجليّ. لكن يكمن التحدّي في تفسير كيفية حدوث هذه الظاهرة. ما هي الأمور التي ترافقت مع حضارة غرب أوروبا بعد القرن الخامس عشر وجعلتها تتفوق على إمبراطوريات الشرق القوية في الظاهر؟ يبدو بوضوح أنّها كانت أموراً تتعدّى جمال معبد سيستين.

إنّ الجواب السهل، غير المنطقي، عن ذلك السؤال هو أنّ الغرب هيمن على بقية أنحاء العالم بسبب السياسة الإمبريالية. ثمّة أناس كثيرون هذه الأيام من الذين هم على استعداد للحديث بكلّ استياء عن جرائم الإمبراطويات الأوروبية أو مساوئها. ظهرت هذه المساوئ بكل تأكيد، وهي لم تغب عن صفحات هذا الكتاب. لكن يبدو واضحاً في الوقت نفسه أنّ أشكالاً أخرى من الاستعمار-الاستيطان مقابل الاقتلاع- قد ترافقت مع عواقب مختلفة جدّاً على المدى الطويل. لا يُعدُّ وجود الإمبراطورية تفسيراً تاريخياً كافياً للهيمنة الغربية. ظهرت إمبراطوريات قبل وقت طويل من وجود الإمبريالية التي شجبها الماركسيون-اللينينيون. شهد القرن السادس عشر، في الواقع، عدداً من الإمبراطوريات الآسيوية التي زادت كثيراً من قوتها ومدى سيطرتها. فشل مشروع تشارلز الخامس في إقامة إمبراطورية عظمى لآل هبسبورغ، وهي الإمبراطورية التي كان يُفترض أن تمتد من إسبانيا عبر البلاد المنخفضة حتّى ألمانيا. وهكذا تجزأت أوروبا أكثر من ذي قبل، كما أنّ الإصلاح "الديني" تسبّب بإطلاق حروب دينية استمرت أكثر من قرن من الزمن.

لم يكن بوسع المسافر في القرن السادس عشر إلّا ان يلاحظ النقيض (الحالة في أوروبا)، فبالإضافة إلى سيطرة الإمبراطورية العثمانية التي كانت بقيادة سليمان الكبير (١٥٦٦-١٥٢٠م) على الأناضول، ومصر، وشبه الجزيرة العربية، وبلاد ما بين النهرين واليمن، فقد توسّعت إلى البلقان وهنغاريا وهدّدت أبواب فيّينا سنة ١٥٢٩م. أمّا إلى الشرق، فقد امتدّت الإمبراطورية الصفوية التّي كانت تحت حكم عبّاس الأول (١٦٢٩-١٥٨٧م) من أصفهان وتبريز إلى قندهار، في حين كانت المناطق في شمال الهند بدءاً بدلهي حتّى البنغال تحت حكم الإمبراطور المنغولي القوي أكبر (١٦٠٥-١٥٥٦م). أمّا الصين التي كانت تحكمها سلالة مينغ، فقد بدت منيعة وراء السور العظيم. كان صعباً على الزوّار الأوروبيين القليلين الذين زاروا بلاط الإمبراطور وانلي (١٦٢٠-١٥٢٧م) أن يتوقعوا سقوط هذه السلالة بعد مرور أقل من ثلاثة عقود على موته. أمّا الدبلوماسي الفلامنكي أوجييه غيسلين دي بوسبيك، فقد كتب بانزعاج ظاهر في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي مقارناً ما بين أوروبا المجزّأة و"الثروة الهائلة" للإمبراطورية العثمانية.

يحقّ لنا القول إنّ القرن السادس عشر كان زمن النشاط الأوروبي المحموم وراء البحار. لكن الإمبراطوريات الشرقية عدّت البحّارة البرتغاليين والهولنديين النقيض المباشر لحاملي لواء الحضارة، وهكذا كانوا مجرد آخر دفعة من البرابرة الذين هدّدوا المملكة الوسطى. حظي هؤلاء البحارة بكراهية أكبر من تلك التي كانت الإمبراطوريات تشعر بها نحو قراصنة اليابان. أمّا أكثر ما جذب الأوروبيين إلى آسيا، فكانت النوعية الممتازة للأقمشة الهندية والبورسلان الصيني.

تمكّن جيشٌ عثماني من الزحف نحو أبواب فيّينا عام ١٦٨٣م، وهي عاصمة لإمبراطورية هبسبورغ. وبعد رفع الحصار عن المدينة تمكنت المسيحية ببطء من تهديد السيطرة العثمانية في وسط وشرقي أوروبا عبر البلقان حتّى البوسفور، لكنّ ذلك استغرق سنوات طويلة قبل أن تتمكّن الإمبراطوريات الأوروبية من الوقوف على قدم المساواة مع إنجازات الإمبريالية الشرقية. أمّا "الافتراق العظيم" ما بين الغرب وبقية أنحاء العالم، فقد كان بطيئاً أكثر في الظهور في أماكن أخرى. إنّ الفجوة المادية ما بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية لم تترسخ بقوة حتّى أواسط القرن التاسع عشر، كما أنّ معظم أفريقيا كانت في ذلك الوقت خارج سيطرة الأوروبيين حتّى مطلع القرن العشرين، ما عدا بضع مناطق ساحلية ضيّقة.

إذا كان متعذّراً لتلك الأسباب تفسير صعود الغرب بحسب التعابير المُملّة للإمبريالية، فهل كان ذلك مجرد قدر من الحظ الحسن، بحسب زعم بعض الباحثين؟ هل يرجع السبب إلى الجغرافيا أم إلى مناخ الطرف الغربي لأوراسيا، وهو الذي أحدث ذلك التباعد؟ هل كان الأوروبيون مجرد محظوظين عندما عبروا جزر الكاريبي، وهي الجزر المثالية من حيث الموقع لزرع قصب السكر الغني بالسعرات الحرارية؟ وهل قدّم العالم الجديد آكرات مترامية الأطراف من الأراضي (إلى أوروبا) في حين أنّ الصين كانت تفتقر إليها؟ وهل الحظ السيئ هو الذي جعل الفحم في الصين أكثر صعوبة للتعدين والنقل من الفحم في أوروبا، أم أنّ الصين كانت بمعنى ما ضحية نجاحها الذي حقّقته هي؛ أي إنّها علقت في "مصيدة توازن على مستوى عال"؛ وذلك نتيجة قدرة مزارعيها على تزويد عدد كبير من الناس بالكمية الكافية من السعرات الحرارية التي تكفل لهم الاستمرار في العيش؟ أيُعقل أن تصبح إنجلترا البلد الصناعي الأول لسبب رئيس، وهو أنّ سوء أوضاع الصرف الصحي والأمراض قد جعل الحياة قصيرة بالنسبة إلى الغالبية الساحقة من الناس، وهو ما أعطى الأغنياء والمغامرين فرصة أفضل لإمرار جيناتهم الوراثية؟

رفض واضع القواميس الإنجليزي صاموئيل جونسون كلّ هذه التفسيرات المحتملة لصعود الغرب. قال جونسون على لسان رسيلاس في كتابه تاريخ رسيلاس أمير أبيسينيا سنة ١٧٥٩م: "ما هي الوسائل... التّي جعلت الأوروبيين أقوياء هكذا؟ أو لماذا لا يستطيع الآسيويون والأفريقيون، مع قدرتهم على زيارة آسيا وأفريقيا بسهولة من أجل التجارة أو السيطرة، زرع مستعمراتهم في موانئ هاتين القارتين، وإصدار القوانين لأمرائهما؟ إنّ الرياح التي تعود بهم هي ذاتها التي تنقلنا إلى هناك."

أجاب الفيلسوف إيملاك عن هذه التساؤلات كما يأتي: "إنّهم يا سيدي أقوى منّا، ولأنّهم أكثر حكمة منّا، وهكذا فإنّ المعرفة سوف تتفوق دوماً على الجهل، أي مثلما يدير أي رجل الحيوانات الأخرى. لكن لماذا تكون معرفتهم أكثر من معرفتنا؟ لا أعرف السبب الذي يُمكن أن يُعطى لذلك سوى الإرادة غير القابلة للجدال للكائن الأعلى."

لا شكّ في أنّ المعرفة قوة إذا كانت تقدّم طرائق متفوّقة للإبحار بالسفن، واستخراج المعادن وإطلاق النار من البنادق ومعالجة الأمراض. لكن أيعقل أنّ الأوروبيين هم في واقع الأمر أكثر اطلاعاً من الشعوب الأخرى؟ ربّما كان الأمر كذلك بحلول العام ١٧٥٩م، بدليل أنّ الابتكارات العلمية لنحو قرنين ونصف قرن من الزمن بعد العام ١٦٥٠م كانت غربية المنشأ. لكن هل كان الأمر كذلك عام ١٥٠٠م؟ سنرى لاحقاً أنّ التقنية الصينية والرياضيات الهندية وعلم الفلك العربي كانت متقدمة قبل قرون من الزمن. أم أنّ فرقاً ثقافياً غامضاً هو الذي أهّل الأوروبيين لأن يسبقوا نظراءهم الشرقيين؟ كانت تلك هي الحجة التي ساقها عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر.

ظهرت هذه الفروق بصيغ عديدة، الفردانية الإنجليزية في القرون الوسطى، والنزعة الإنسانية والأخلاقية البروتستانتية، كما أنّها اتُّبعت في كلّ مكان بدءاً بوصايا ويلز للمزارعين الإنجليز، إلى دفاتر حسابات التجار المتوسطين وقواعد الإتيكيت

في البلاطات الملكية. أوضح دافيد لاندس في كتابه "ثورات الأمم وأسباب فقرها" هذه القضية الثقافية عندما أثبت أنّ أوروبا الغربية قادت العالم نحو تطوير البحث الفكري الشخصي، وكذلك في الطريقة العلمية في التحقّق، عقلنة البحوث ونشرها. لكنّه ذكر مع ذلك أنّ هناك أشياء أخرى مطلوبة كي يزدهر ذلك النمط من العمل: الوسطاء الماليون والحكومات الجيّدة. أمّا العامل الأساسي في كلّ ذلك فقد أصبح واضحاً أنّه يكمن ضمن المؤسسات (النُظم).

تُعتبر المؤسسات (النُظم) بطبيعة الحال نتيجة الثقافة بمعنى ما. لكن لأنّها تقوم بصوغ مجموعة من المعايير فإنّ هذه المؤسسات هي العناصر التي تُبقي الثقافة نزيهة، وهي التي تقدّر إلى أي مدى تُساهم في السلوكيات الحسنة بدلاً من السيئة. أمّا إذا أردنا إيضاح هذه النقطة، فيمكننا القول إنّ القرن العشرين قد شهد مجموعة من التجارب التي فرضت وجود مؤسسات (نُظم) مختلفة تماماً على مجموعتين من الألمان (في الغرب والشرق)، ومجموعتين من الكوريين (في الشمال والجنوب)، ومجوعتين من الصينيين (داخل الجمهورية الشعبية وخارجها أي تايوان). جاءت النتائج مدهشة جدّاً. أمّا الدروس المستخلصة فكانت في منتهى الوضوح.

يعني ذلك أنّه إذا أخذنا الشعب ذاته الذي يمتلك الثقافة ذاتها كمثل، وفرضنا مؤسسات (نُظماً) شيوعية على مجموعة ما، ونُظماً رأسمالية على مجموعة أخرى، فإنّ ذلك يعني وجود اختلاف بالطريقة التي تتصرّف بها هاتان المجموعتان.

يوافق عدد كبير من المؤرّخين هذه الأيام على وجود عدد قليل من الاختلافات الجوهرية ما بين الطرفين الشرقي والغربي من أورواسيا في سنوات القرن السادس عشر. كانت المنطقتان تتبنيان الزراعة والتبادل المستند إلى قواعد السوق وإلى الكيانات التي ترتكز على المدن. بقي مع ذلك فرق مؤسساتي جوهري واحد ظهر في النُظم. في الصين في ذلك الوقت إمبراطورية موحدّة، في حين بقيت أوروبا مجزّأة سياسياً. فسّر يارد دياموند في كتابه "بنادق، أفكار وفولاذ" السبب الذي جعل أورواسيا تتقدّم على بقية أنحاء العالم، لكنّه لم يُقدّم لنا إجابة عن السبب الذي جعل أحد طرفي أورواسيا يتقدّم كثيراً على الطرف الآخر إلى أن كتب مقالته: "الطريق إلى الغِنى" سنة ١٩٩٩. تلخّصت الإجابة التي قدّمها في أنّ الإمبراطوريات الشرقية الموحّدة التي ظهرت في سهول أورواسيا خنقت الابتكار، في حين انشغلت الممالك المتعدّدة والدول/المدن، التي ظهرت فوق مناطق غرب أورواسيا التي تقطعها الأنهر، في منافسة إبداعية وفي تواصل.

يريد البروفيسور نيل فرغيسون في هذا الكتاب إظهار أنّ ما يُميّز الغرب عن بقية أنحاء العالم، ومن ثم عن القوى المحركة للقوة العالمية، كان ستّة تطويرات جديدة ومتميّزة في النُظم وما رافقها من أفكار وسلوكات. يمكن تلخيص هذه التطويرات ووضعها تحت ستّة عناوين من أجل تبسيطها: المنافسة، والعلوم، وحقوق الملكية، والطب، والمجتمع الاستهلاكي وأخلاقيات العمل.

يمكننا القول إنّ هذه التطبيقات الستّة الاستثنائية الحاسمة، قد سمحت لأقلية من البشر نشأت في الطرف الغربي من أورواسيا بالهيمنة على العالم لمعظم فترة السنوات الـ ٥٠٠ الماضية. فالمنافسة واللامركزية في الحياة السياسية والاقتصادية قد أدّتا إلى خلق نقاط انطلاق للدولة/الأمة وللرأسمالية.

العلوم: طريقة دراسة وفهم العالم الطبيعي ومن ثم تغييره أدّت إلى إعطاء الغرب (من بين أمور أخرى) تفوّقاً عسكرياً رئيسياً على بقية أنحاء العالم.

حقوق الملكية: أي حكم القانون بوصفه وسيلة لحماية المالكين الشخصيين وحلّ النزاعات ما بينهم بطريقة سلمية، وهو الأمر الذي شكّل قاعدة لأكثر صيغ الحكومات ثباتاً.

الطبّ: ذلك القسم من العلوم الذي سمح بإدخال تحسينات على الصحة وتوقعات طول الأعمار، وهي الأمور التي بدأت في المجتمعات الغربية لكنّها امتدت كذلك إلى المستعمرات التابعة لها.

المجتمع الاستهلاكي: إنّه نمط الحياة المادية الذي يؤدّي فيه إنتاج الألبسة والسلع الاستهلاكية الأخرى وشراؤها دوراً اقتصادياً محورياً، ومن دونه ما كانت الثورة الصناعية لتستمر.

أخلاقيات العمل: الهيكلة الأخلاقية ونمط الأنشطة (من بين أمور أخرى) المستقاة من المسيحية البروتستانتية، هي التي توفّر اللحمة اللازمة للمجتمع الحركي المعرّض لعدم الاستقرار.

يشرح فرغيسون هنا، قبل البدء في تفصيل هذه التطبيقات الستّ، فكرة مهمة تُجنّبه التعرّض لسوء الفهم: "إنّ هذا ليس طريقة أخرى لعرض "انتصار الغرب". أريد إظهار أنّ التفوّق الغربي وحده لم يكن هو العامل الذي أدّى إلى السيطرة على معظم أنحاء بقية العالم واستعماره، بل الضعف المفاجئ الذي أصاب منافسي الغرب."

على سبيل المثال أدّت مجموعة عوامل في أربعينيات القرن السابع عشر؛ منها أزمات مالية واقتصادية، وتغيّرات في المناخ وأمراض وبائية، إلى إطلاق ثورة كانت هي الأزمة الأخيرة في مملكة مينغ. لم تتعلق هذه العوامل بالغرب على الإطلاق. يصدق الأمر ذاته على الانحطاط السياسي والعسكري الذي أصاب الإمبراطورية العثمانية، والتي كانت عوامل داخلية أكثر منها عوامل فُرضت من الخارج. نُلاحظ كذلك أنّ المؤسسات السياسية في أمريكا الشمالية قد ازدهرت في الوقت نفسه الذي فسدت فيه تلك المؤسسات في أمريكا الجنوبية، ففشَلُ سيمون بوليفار في تكوين ولايات متحدّة لأمريكا الجنوبية ليس خطأ الغربيين.

أمّا النقطة الحاسمة هنا فهي أنّ الفرق بين الغرب وبقية العالم كان اختلافاً مؤسساتياً. تمكّنت أوروبا الغربية من تجاوز الصين، جزئياً؛ وذلك نظراً لوجود تنافس أكبر في المجالين السياسي والاقتصادي في الغرب. تمكّنت النمسا وبروسيا وروسيا بعد ذلك من اكتساب فاعلية أكبر من الناحيتين الإدارية والعسكرية؛ لأنّ الشبكة التي أنتجت الثورة العلمية ظهرت في العالم المسيحي وليس في العالم الإسلامي.

أمّا السبب الذي مكّن المستعمرات السابقة في شمال أمريكا من إحراز قدر من النجاح أكبر من ذلك الذي أحرزته المستعمرات السابقة في جنوب أمريكا، فكان أنّ المستوطنين الإنجليز أسّسوا نظاماً لحقوق الملكية والتمثيل السياسي في الشمال يختلف تماماً عن ذلك الذي أسّسه الإسبانيون والبرتغاليون في الجنوب (برز في الشمال "نظام الحيازة المفتوح"، بدلاً من ذلك النظام المغلق الذي يُراعي مصالح النخبة الساعية إلى التأجير). وتمكّنت الإمبراطوريات الأوروبية من اختراق أفريقيا، ليس بسبب امتلاكها البنادق الرشّاشة فحسب؛ بل لأنّها اخترعت لقاحات ضدّ أمراض المناطق الاستوائية التي كانت تفتك بالأفارقة.

عكست الثورة الصناعية التي نشأت في الغرب قبل ذلك، وبالطريقة ذاتها، فوائد مؤسّساتية: ظهرت إمكانية للمجتمع الاستهلاكي على النطاق الواسع قبل قدوم القوة البخارية وانتشارها، أو حتّى قبل نظام المصانع. واستمرت الفروق بين الشرق وبقية العالم حتّى قبل توافر التكنولوجيا الصناعية وانتشارها، لكنّها تزايدت في الاتساع في واقع الأمر. وتمكّن

العامل الأوروبي أو العامل في أمريكا الشمالية من العمل بإنتاجية أكبر، كما تمكّن ربّ عمله الرأسمالي من تجميع الثروة بسرعة أكبر من تلك التي لدى نظرائه الشرقيين، وذلك مع وجود آلات موحّدة بالكامل لغزل القطن. أمّا الاستثمار في مجال الصحة العامة وفي التعليم العام، فقد كان مجزياً أكثر. أمّا في المناطق التي لم توجد فيها تلك الاستثمارات، فقد بقي الناس فيها فقراء.

لا يغفل فرغيسون هنا أيضاً عن تحديد مدلول المصطلح الأكثر استعمالاً في كتابه هذا، أي مصطلح الغرب. فقد استخدم كلمات مثل "الغرب" و"الغربية" بطريقة عَرضية نوعاً ما. فما الذّي يعنيه بالضبط عندما يستخدم تعبير: "الحضارة الغربية" وأين يسخدمه؟

تعوّد الرجال الأنجلو-سكسون البيض والبروتستانت تحديد الغرب بصورة فطرية نوعاً ما بطريقة ضيّقة نسبياً، فهو الذي يمتد (بالتأكيد) من لندن حتّى ليكزنغتون، ماساشوستس، وكذلك (لربّما) من ستراسبورغ حتّى سان فرانسيسكو. كانت اللغة الأولى للغرب الذي خرج توّاً من ميادين الحروب عام ١٩٤٥م، هي الإنجليزية متبوعة بالفرنسية. أمّا بعد نجاح الاندماج الأوروبي في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي فقد زاد النادي الغربي اتّساعاً. أعتقد أنّ القليلين يشكّون الآن بأنّ البلاد المنخفضة، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، والبرتغال، وإسبانيا وإسكندنافيا تنتمي كلّها إلى الغرب، في حين أن اليونان هي عضوة فخرية فيه وذلك بالرغم من ولائها لاحقاً إلى المسيحية الأرثوذيكسية؛ وذلك لأنّنا مدينون دوماً للفلسفة الهيلينية.

لكن ماذا بشأن ما تبقّى من جنوب وشرق المتوسط، وهما المنطقتان اللتان لا تضّمان مناطق البلقان شمال البيلوبونيز فقط، لكنّهما تضّمان كذلك شمال أفريقيا والأناضول؟ وماذا بشأن مصر وبلاد ما بين الرافدين مهد الحضارات الأولى؟ هل أمريكا الجنوبية التي استعمرها الأوروبيون مثلما استعمروا أمريكا الشمالية، والتي تقع في نصف الكرة الجنوبي، هي جزء من الغرب؟ وماذا نقول عن روسيا؟ هل الجزء الأوروبي من روسيا هو غربي حقّاً، في حين أنّ روسيا ما وراء الأورال هي جزء من الشرق بمعنى ما؟ كان يُشار خلال الحرب الباردة إلى الاتحاد السوفياتي والدول الدائرة في فلكه على أنّها "الكتلة الشرقية"، لكن يمكننا القول إنّ الاتحاد السوفياتي كان نتاجاً للحضارة الغربية مثلما كانت الولايات المتحدة. اشتمل جوهر عقيدة الاتحاد السوفياتي على المصادر الفيكتورية ذاتها؛ مثل القومية والعداء للعبودية ولمعاناة المرأة، وهي كلّها المبادئ التي وُلدت في حضن المكتبة الإنجليزية. يصدق الأمر ذاته على امتداده الجغرافي الذي كان نتاج التوسّع والاستعمار الأوربيين في آسيا الوسطى مثلما فعلوا في أمريكا الجنوبية. يمكننا القول، بذلك المعنى، إنّ ما حدث سنة ١٩٩١م، كان موتاً لآخر إمبراطورية أوروبية.

لكن أحدث تعريف جدّي للحضارة الغربية، كان التعريف الذي قدّمه صموئيل هنتنغتون، الذي لا يستبعد فيه عن الغرب روسيا وحسب، وإنّما جميع البلدان التي تتبّع الأورثوذكسية. يشمل الغرب، بحسب هنتنغتون، غرب أوروبا ووسطها (من دون الشرق الأورثوذكسي) وشمال أمريكا (من دون المكسيك) وأستراليا (مع نيوزيلندا وجزر جنوب المحيط الهادئ). أمّا اليونان و"إسرائيل" ورومانيا وأوكرانيا فلا يشملها ذلك التعريف. يصدق الأمر ذاته على جزر الكاريبي، بالرغم من أنّ عدداً منها هو غربي مثل فلوريدا.

نستنتج من كلّ ذلك أنّ تعبير "الغرب" هو أكثر بكثير من تعبير جغرافي، إنّه مجموعة من المعايير والسلوكات والمؤسّسات، وهو يمتلك مع ذلك حدوداً ليست واضحة عند أطرافه.

١ .المنافسة:

يعرض فرغيسون في البداية القوة التي كانت عليها الصين والحضارة التي بنتها؛ ليؤكد أن لا حضارة بشرية تدوم إلى الأبد، فقد مدح آدم سميث الصين ووصفها بكونها "واحدة من أغنى وأخصب الأراضي المزروعة في العالم"، وبكونها "بلداً أغنى بكثير من أي جزء من أجزاء أوروبا"، إلّا أنّه قال عنها في الوقت ذاته إنّها "جامدة منذ وقت طويل"، أو إنّها "تقف بثبات."

كان سميث، على حدّ تعبير فرغيسون، محقّاً في وصفه هذا؛ إذ بدأ هبوط الشرق النسبي في غضون أقل من قرن من تشييد الصينيين للمدينة المحرّمة في قلب بيجينغ ما بين ١٤٠٦-١٤٢٠م، في الوقت الذي انطلقت فيه الدول الصغيرة والفقيرة المنهكة بالصراعات في غرب أوروبا في توسّع مستمر تقريباً لفترة خمس مئة سنة، حتّى بدأ الشرق يخضع تدريجياً للهيمنة الغربية.

لماذا تهاوت الصين في حين مضت أوروبا قُدماً؟ كان الجواب الرئيس عند سميث هو أنّ الصين عجزت عن "تشجيع التجارة الخارجية"، وهكذا حُرمت من الفوائد التي تتيحها المقارنة، ومن التقسيم الدولي للعمالة.

يعرض فرغيسون، باختصار، بعض التفسيرات الأخرى التي حاولت الإجابة عن هذا السؤال، كتلك المستندة على عامل المناخ والجغرافيا والتقنية والثورة الصناعية والأفكار وما إلى ذلك، ليثبت قصورها ويُرجّح عاملاً مؤسّساتياً نظامياً ألا وهو عامل التنافس.

في محاولته إثبات ذلك، يجري فرغيسون مقارنة تاريخية حضارية بين الصين وإنجلترا أثناء القرون الوسطى، مقارنة تُثبت المستوى الحضاري العالي لبيجينغ مقارنة بلندن المتخلفة آنذاك، فنهر التايمز الذي يشق لندن مثلاً كان مجرّد مجرى مائي راكد ومتخلّف مقارنة بنهر اليانغ تسي الذي يربط ما بين نانكنغ وبيجينغ، فقد كان الأخير مشيّداً بجسور رائعة كجسر الحزام الثمين ذي الأقواس المتعدّدة، يُبحر فيه نحو ١٢ ألف مركب محمّل بالحبوب سنوياً، حتّى إنّ ماركوبولو، الرحّالة الشهير، قد سمّاه بالنهر العظيم حينما زار الصين في سبعينيات القرن الثالث عشر، وقال إنّ الأعداد الكبيرة من المراكب التي تستخدم هذا النهر كبيرة جدّاً بحيث لن يُصدّقها أحد من الذين يقرؤون أو يسمعون عنها، وإنّ كمية التجارة التي يتّم تبادلها هي أكبر من أن تُصدّق، "إنّها كبيرة جدّاً في واقع الأمر، بحيث يُخيّل إلى المرء بأنّه يقف أمام بحر وليس مجرّد نهر". كان هذا النهر العظيم يعتبر شرياناً أساسياً للتجارة داخل الصين وخارجها، في الوقت الذي كانت فيه تقنيات الإبحار البدائية تُبقي البحّارة الإنجليز ضمن مناطق ضيقة من المياه، أي التايمز والقناة، أي حيث يتمكّنون من البقاء في مجال رؤية الضفاف والسواحل المألوفة لديهم.

يذكر فرغيسون بعد ذلك مجموعة من الاختراعات التقنية التي شاع بأنّها ظهرت في أوروبا الغربية مع مطلع الثورة الصناعية، إلّا أنّها في الحقيقة وُجدت في الصين قبل قرون من ذلك الزمن؛ على غرار المطبعة، وصناعة الورق، والساعة، والبارود، وأدوات الزراعة، والمبيدات الزراعية الكميائية، وبكَرة صيد الأسماك، وأعواد الثقاب، والبوصلة المغناطيسية، وأوراق اللعب، ولعبة الغولف، وفرشاة الأسنان، وعربة اليدّ وغيرها من الابتكارات. ولعلّ الاختراع الأكبر الذي تميّزت به الصين قبل الأوروبيين وأكسبها، من ثم، تقدّماً تجارياً وعسكرياً عليهم هو السفينة البحرية.

عرفت الصين بحّاراً شهيراً اسمه جينغ هي، كان له سفينة بطول ٤٠٠ قدم؛ أي خمسة أضعاف حجم سانتا ماريا السفينة التي عبر كريستوف كولومبس بها المحيط الأطلسي سنة ١٤٩٢م. كانت سفينة الأميرال جينغ هي جزء فقط من أسطول

يشتمل على أكثر من ٣٠٠ سفينة شراعية كبيرة وعابرة للمحيطات. احتوت السفن على أشرعة متعدّدة وحجرات طافية من أجل منع غرقها، كانت أكبر من أيّ شيء آخر تمّ بناؤه في أوروبا القرن الخامس عشر. وكان أسطول جينغ هي، المؤلف من ٢٨ ألف بحّار، أكبر من أيّ أسطول آخر شهده الغرب حتّى الحرب العالمية الأولى.

كانت لجينغ هي رحلات بحرية مدهشة امتدت في ذلك الزمن إلى مسافات كانت أشبه بالمستحيل بلغت الساحل الشرقي لأفريقيا، أبرزت "التفوّق لعالمي" للصين أمام الشعوب الأخرى، وكانت عرضاً مهيباً للثروة والتطوّر التكنولوجي لها، أي مثلما كانت عليه رحلات أبولو إلى القمر. دام هذا التفوّق إلى أن مات الإمبراطور الصيني يونغل الذي كان داعماً لهذه الرحلات، ثمّ مات جينغ هي وحلّ نظامُ حكمٍ حظرَ مثل هذه الرحلات وأتلف سجلات هذا البحار العظيم.

إذا انتقلنا إلى غرب أوروبا في ذلك الوقت، فسوف يُقابلنا حدث مهمّ جدّاً اسمه: الاستكشافات الجغرافية. في عقد الـ١٤٩٠ وضع مانويل الملك البرتغالي المتوج حديثاً آنذاك، البحّار فاسكو دي غاما على رأس أربع سفن صغيرة (كان بالإمكان وضعها معا داخل سفينة جينغ هي العملاقة)، وأوكل إليه مهمّة "إحراز اكتشافات والانطلاق بحثاً عن التوابل"، فكان قَدرُ هذه المهمّة أن تُحوّل العالم بأسره نحو الغرب، إذ حملت معها هذه المهمّة وما تبعها من منافسة شديدة بين أوروبا الغربية وبقيّة العالم للحصول على التوابل والاستحواذ على طرق التجارة، فحينها اكتشف دي غاما ورفقاؤه طريق الرجاء الصالح وحققوا ما عجز عنه أسلافهم في الحصول على طريق جديد لتجارة التوابل نحو الهند، ورست سفنه على سواحل ماليندي (كينيا اليوم) سنة ١٤٩٨م أي بعد ٨٢ سنة مضت على رسو سفينة جينغ هي هناك.

رغم ذلك فقد كانت رحلة دي غاما الأولى فاتحة لكثير من الرحّالة الأوروبيين، الذي تقدّمهم البرتغاليون طبعاً، حتّى قال عنهم كاموس: "لو بقيت هناك عوالم أخرى تنتظر الاستكشاف فإنّهم سيجدون طريقهم إليها". أدرك الأوروبيين تلك الفوائد الثمينة للتوسّع فيما وراء البحار، كانت إسبانيا أولّ الأمر بعيدة عن هذا التوسع الذي قامت به البرتغال، لكنّها أخذت المبادرة في العالم الجديد، كما لم تلبث أن أسّست موقعاً آسيوياً لها في الفلبين.

أدّت معاهدة توردیسیلاس سنة ١٤٩٣م إلى تقسيم العالم بين هاتين القوتين في شبه الجزيرة الإيبيرية لمدّة عقود من الزمن، وتمكنّت الدولتان من التعلّق بإنجازاتهما الإمبريالية بثقة زائدة بالنفس، وبحلول أواسط القرن السادس عشر تمكّن الهولنديون البارعون في التجارة من التفوّق على البرتغاليين بالنسبة لأعداد السفن، وكذلك بالنسبة لحمولة السفن التي يُبحرون بها حول رأس الرجاء الصالح، ثمّ تلاهم الفرنسيون الذين دخلوا السباق متأخرين قليلاً. أمّا الإنجليز فقد أدركوا أنّهم متأخرون عن منافسيهم وأعدائهم التاريخيين الفرنسيين والإسبان، فكانت لهم محاولات استكشافية باتجاه العالم الجديد (أمريكا) والهند، إذ ازدهرت تجارتهم بحلول أواسط القرن السابع عشر، ليدخل الأوروبيون منافسة تجارية شرسة.

تبعت هذه المنافسة حروب دامية بين الأوربيين وبين أفراد الدولة الواحدة، كما حدث في ألمانيا وفرنسا. وكانت لتلك الحروب فوائد غير مقصودة، كالتشجيع على الابتكار في ميدان التكنولوجيا العسكرية، وتقوية التحصينات البرّية عبر الحصون والمدافع التي ازدادت قوة ومرونة، وتطوير هياكل وتقنيات السفن التي صارت تحمل مدافع على جنباتها. كما أدّت هذه الحروب إلى تحسين الدول المتصارعة لطريقة توفيرها للمداخيل اللازمة كي تتمكّن من دفع تكاليف حملاتها العسكرية.

أدّت الصراعات المميتة التي استمرت على مدى أجيال إلى منع أيّ ملك أوروبي من بلوغ القوة الكافية بحيث يتمكّن من منع الاستكشاف وراء البحار. تقدّم الأتراك نحو أوروبا الشرقية مراراً خلال القرن السادس عشر والسابع عشر، وبالرغم من ذلك لم يتمكّن أيّ إمبراطور أوروبي من توجيه الأوامر للبرتغاليين من أجل تعليق استكشافاتهم البحرية بُغية التركيز على

العدو القادم من الشرق. أقدم الملوك الأوربيون على النقيض من ذلك، على تشجيع التجارة، والفتوحات والاستعمار، فقد كان ذلك جزءاً من التنافس القائم فيما بينهم. كان التنافس الداخلي بين النقابات السائدة وأرباب العمل والصناعات أيضاً عاملاً إضافياً محفّزاً على تطوير التقنية داخل المجتمعات الأوروبية.

يقول فرغيسون: إنّ "الحضارات هي من الأمور المعقدّة، وهي التي يُمكن لها أن تزدهر في منطقة معيّنة بكل ما أوتيت من قوة وازدهار، لكنّها عادة ما تسقط بعد ذلك، بطريقة مفاجئة فريسة الفوضى"، وهذا ما حدث لحضارة الصين تماماً. بزغت هذه الحضارة مع نشأة سلالة مينغ في الصين سنة ١٣٦٨م، وذلك عندما أعاد أمير الحرب يوان جانغ تسمية نفسه بإسم هونغ وا، وهو الاسم الذي يعني "القوة العسكرية الهائلة"، وعلى امتداد القرون الثلاثة التالية تحت حكم سلالة مينغ، كانت الصين أكثر الحضارات العالمية تطوّراً بحسب كلّ المعايير. لكن، في منتصف القرن السابع عشر تعثّرت هذه الحضارة، حيث عصفت أزمة سياسية كبيرة بالبلاد في منتصف القرن السابع عشر، تلتها أزمة اقتصادية. كما فاقمت من سوء الوضع ظروف مناخية، فانتشرت المجاعة والأوبئة حتّى جعلت هذه الأحوال السيئة من الصين فريسة للغزوات الخارجية. كلّ ذلك أدّى في نهاية المطاف إلى انتهاء حكم سلالة مينغ وتقلّص سكان البلاد. يُرجع فرغيسون ذلك إلى انكماش حكام الصين نحو الداخل بشكل مميت.

تسارعت في المقابل نسبة تزايد السكان في إنجلترا أواخر القرن السابع عشر، كما أنّ التوسع فيما وراء البحار قد أدّى دوراً حيوياً في إخراج البلاد من "مصيدة مالتوس". أدّت التجارة عبر الأطلسي إلى تدفّق مغذّيات جديدة إلى البلاد فضلاً عن الكميات الكبيرة للأسماك، كما سمح الاستعمار بهجرة العدد الفائض من السكان. كانت النتيجة بمرور الزمن هي الزيادة في الإنتاجية، والمداخيل، والتغذية وحتّى طول الأشخاص، فكانت إنجلترا تُحرز تقدّماً نوعياً أمام حضارات الشرق العظيمة.

تأكدّ صعود الغرب [وهيمنته] شهر حزيران/يونيو من عام ١٨٤٢م؛ أي عندما أبحرت القوارب المسلحة التابعة للبحرية الملكية البريطانية صعوداً في نهر يانغ تسي، ووصلت إلى القناة الكبرى، وذلك ردّاً على إتلاف كميات من الأفيون على يدّ مسؤول صيني متحمّس. اضطرت الصين إلى دفع تعويض مقداره ٢١ مليون دولار فضّي، وكذلك إلى فتح خمسة مرافئ صينية أمام التجارة البريطانية، وإلى التنازل عن سيادتها على جزيرة هونغ كونغ. كان من المفارقة الملائمة توقيع هذه المعاهدة التي وُصفت بأنّها أولى "المعاهدات غير المتكافئة" في نانكينغ... لقد مرّت الصين عبر ٣٠٠ سنة في حالة من العزلة وأصبحت فقيرة ورجعية وعانت أوقاتاً حالكة من الجهل.

٢ .العلوم:

يرى البروفيسور نيل فرغيسون أنّ تفوق الغرب على المسلمين في معظم الحروب الصليبية التي خاضها الغرب ضدّهم في القرون الوسطى راجع إلى تفوّق الغرب في مجمل ميادين العلوم. صحيح أنّ المسلمين كانت لهم أيام ساطعة في مجال الجبر والهندسة والطب والفلسفة وغيرها من العلوم والآداب والفنون خلال مرحلة الدولة العباسية، ثمّ سطوة سياسية وعسكرية على الغرب أيام الدولة العثمانية التي وصلت بجيوشها إلى فيينا، إلّا أنّ هذه الأيام أفَلت ولم تعد. أحد أسباب ذلك هو الصراع المستمر بين الدولة العثمانية وإمبراطوريات روسيا وأوروبا الغربية وكذا إمبراطورية آل هبسبورغ. كانت معركة فيينا سنة ١٦٨٣م بمنزلة نقطة الانحدار لتوسعات الدولة العثمانية، إذ طُرد بعدها العثمانيون تقريباً من كلّ الأراضي الأوروبية التي قهرها السلطان سليمان. في مقابل ذلك كانت هذه الهزائم التي تكبّدها العثمانيون لحظة حاسمة في صعود الغرب.

كانت فترة أواخر القرن السابع عشر فترة التغيير المتسارع في أوروبا في مجالين هامين: الفلسفة الطبيعية (وهي الوصف الذي كان يُطلق على العلوم) والنظرية السياسية. شهدت السنوات التي أعقبت عام ١٦٨٣م تغييرات عميقة في طريقة إدراك العقل الغربي للطبيعة والحكم. نشر إسحاق نيوتن عام ١٦٨٧م كتابه "برينسيبيا"، وبعد مرور ثلاثة أعوام نشر صديقه جون لوك كتابه "أطروحة ثانية في الحكم". يعني ذلك أنّه لو كان على المرء أن يُفرّق الغرب عن الشرق في أمر واحد لكان ذلك الأمر هو تفاوت درجات السعي وراء هذه المعرفة الواسعة وتطبيقها بصورة منهجية.

أمّا التراجع الكبير الذي أصاب الإمبراطورية العثمانية بعد سنة ١٦٨٣م، فلم يكن نتيجةً للتراجع الاقتصادي.. فالتفسير الذي أورده فرغيسون سابقاً عن انحطاط الصين لا ينطبق على الدولة العثمانية هنا؛ أي لم يكن هناك غياب للتنافس الاقتصادي والشركات المساهمة المستقلة، حتّى النقابات في الأراضي العثمانية. كانت هناك منافسة كافية كذلك بين العثمانيين والصفويين والمغول. يجب علينا كذلك أن لا نفهم الانحطاط العثماني على أنّه، ببساطة، نتيجة لتنامي التفوّق العسكري الغربي. يظهر ذلك التفوّق عند التمحيص الدقيق بأنّه يستند إلى التحسينات الكبيرة في تطبيق العلوم على المجهود الحربي، وعلى العقلانية في الحكم. أمّا في القرن الخامس عشر، فقد سبق لنا أن رأينا أنّ المنافسة السياسية والاقتصادية أعطت الغرب تفوّقاً حاسماً على الصين. أمّا في القرن الثامن عشر، فقد كان التفوّق على الشرق يتعلّق بالقدرة الفكرية بقدر تعلّقه بالتفوّق في القوة النيرانية في ميدان المعركة.

يُعزو فرغيسون إلى اختراع غوتنبيرغ الشهير أي المطبعة سنة ١٤٥٥م الفضل الأكبر في انتشار تعاليم اللوثرية التي دعت إلى إصلاح كنسي شامل. فقد كان مارتن لوثر، على حدّ تعبيره، الرجل الأكثر استفادة من هذا الاختراع، فقد أصدر وحده نصف عدد المنشورات في فترة ما قبل عصر النهضة أي ما بين عامي ١٥٢١-١٥٤٥م، إذ أُغرقت السوق الألمانية بكتبه المنتقدة للكنيسة الرومانية وبدعها وخداعها للناس (صكوك الغفران مثلاً)، وسرعان ما غزت أوروبا بأكملها.

شجّعت مثل هذه الوسائط الجديدة على القراءة الفردية للكتاب المقدّس وعلى "التعليم المتبادل"، وهكذا كانت، في حقيقة الأمر، رسالة تشجيع على الإصلاح. أمّا المنافع الاقتصادية للمطبعة فقد توزّعت على مكوّنات المجتمع. نلاحظ كذلك أنّه خلال القرن السادس عشر سجّلت المدن التي تمتلك المطابع نمواً أسرع بكثير من تلك التي تفتقدها.

بفضل المطبعة أيضاً خرجت أعمال الفلاسفة القدماء من أدراجها وانتشرت، نذكر منهم على الخصوص أرسطو، الذي نُشر كتابه "النفس- دي أنيما"، وأعيد نشره بترجمة حديثة عام ١٥٠٩م، وكذلك أعمال علماء الإنسانيات، مثل نيكولاس مارشالك وجورج سيبوتوس. ظهر بحدود سنة ١٥٠٠م أكثر من ألف عمل مطبوع في العلوم والرياضيات والطب. أدّت المطابع الإيطالية دوراً مهمّاً بشكل خاص في نشر كتب الحساب وتقنيات المحاسبة، وهي العلوم التي يُمكن الاستفادة منها في التجارة.

نُشر القرآن الكريم أيضاً مترجماً إلى اللاتينية في مدينة بال على يدّ طبّاع اسمه جوهانس أوبورينوس، وقد منعت هذه الترجمة من قِبل مجلس المدينة سنة ١٥٤٢م، وتمّت مصادرة كلّ النسخ الموجودة؛ الأمر الذي دفع بلوثر إلى الكتابة منتقداً هذا الفعل، وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدّل على واقع تفتّح العقل الأوروبي بعد الإصلاح.

حقّقت أوروبا قفزة علمية أخرى مع اختراع المنظار الذي قرّب الكون من أعين الأوربيين، بجزيئاته الصغيرة وأجرامه البعيدة. وفي عام ١٦٦٥م نُشر كتاب روبرت هوك "ميكروغرافيا"، الكتاب الذي يُعدُّ احتفاءً بالتجريب العملي. كانت الثورة العلمية أخيراً ثورة في الفلسفة، عندما قلب رينيه ديكارت وباروخ سبينوزا النظريات التقليدية المتعلّقة بالإدراك

والعقلانية. يمكننا القول دون مبالغة إنّ هذه السلسلة من الابتكارات الفكرية هي أساس العلوم الحديثة في التشريح، وعلم الفلك، وعلم الأحياء، والكيمياء، والجيولوجيا، والهندسة، والرياضيات، والميكانيكا والفيزياء.

في مقابل ذلك وفي العالم الإسلامي كانت الدولة العثمانية غائبة في تلك الفترة عن التقدّم العلمي فضلاً عن مسايرته. بدأت الشخصيات الدينية البارزة تُجادل مع نهاية القرن الحادي عشر بأنّ دراسة الفلسفة اليونانية أمرٌ لا يتوافق مع القرآن، وقضى أكثرهم بتحريم دراسة الفلسفة، فأُحرقت الكتب ولوحق المفكرون. يُضاف إلى ذلك أنّ العالم الإسلامي قاوم فكرة وجود المطابع، واعتبر العثمانيون أنّ المخطوطات تحظى بتقدير خاص. وصل الأمر إلى أن أصدر السلطان سليم الأول مرسوماً عام ١٥١٥م، هدّد فيه بإنزال عقوبة الموت بكلّ من يُقبض عليه مستخدما مطبعة. تبيّن لاحقاً أنّ هذا العجز عن التوفيق بين الإسلام والتقدّم العلمي كان كارثياً. وجد العلماء المسلمون أنفسهم معزولين عن تطوّرات البحث العلمي بعد أن زوّدوا العلماء الأوربيين بالأفكار ذات يوم.

عاشت الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان سليمان الكبير سنة ١٦٤٨م بداية تدهور سياسي كبير؛ حيث كان الخلفاء مشتّتين وضعفاء وغير ذي خبرة في أغلبهم، كما عمّت الدسائس والاغتيالات قصر السلطان وحاشيته، وانتشرت الرشوى والفساد، وتمرّد الإنكشاريون على السلطة المركزية للسلطان. كلّ هذه الظروف ساهمت في الانحدار العلمي والحضاري للعالم الإسلامي. في مقابل ذلك عرفت أوروبا بداية "صحوة سياسية" وإصلاح في الحكم، وهنا يعقد فرغيسون مقارنة بين السلطان عثمان الثالث في الدولة العثمانية والملك فريدريك الكبير في بروسيا؛ بين ضعف الأول وتشتّت حكمه وانكماش دولته، وقوة الثاني وإصلاحاته وتوسّع مملكته في وسط أوروبا.

في زمن فريديريك الكبير ظهر إيمانويل كانط باعتباره أحد أعظم فلاسفة ألمانيا وأوروبا قاطبة، خاصة بعد صدور كتابه الأشهر "نقد العقل الخالص" سنة ١٧٨١م، نشأت منذ ذلك الحين هناك بذرة الحركة الفكرية التي نعرفها اليوم باسم حركة التنوير. لم يكن الهمّ الوحيد عند مفكّري التنوير هو الطبيعة، بل العلوم الاجتماعية، وهو ما أطلق عليه الفيلسوف الإسكتلندي دافيد هيوم "علم الإنسان"، إذ عكف الفلاسفة على الاهتمام بتعريف طبيعة المجتمع الإنساني، كيف يُمكن لهذا المجتمع أن يكون أو يجب أن يكون.. نجح عصر التنوير في تسجيل نقاط سهلة في وضع العقل في مواجهة الخرافات التي تترافق مع الإيمان الديني أو الماورائيات. في هذه المرحلة، جاء كتاب آدم سميت "ثروة الأمم" وكتاب جون لوك "العقد الاجتماعي"، وبرز الفلاسفة الفرنسيون المتمرّدون على السلطتين الزمنية والدينية؛ برز ماركيز دي ميرابو وماركيز كوندوريسه وبارون دي هولباخ، كما برز فولتير وفريديريك شيللر ودينيس ديدرو وغيرهم.

مع ذلك يُسجّل فرغيسون ملاحظة مهمّة؛ وهي أنّ التنوير في أوروبا، خاصة بروسيا، آنذاك، كان يتعلّق بحرية الفكر وليس بحرية التحرك. يُضاف إلى ذلك أنّ هذا التفكير الحرّ، الذي دعمّه الحاكم، كان مُصمّماً في الأساس بُغية تعزيز سلطة الدولة، وإلّا لما صار فولتير غير مرحّب به في برلين بعدما كتب كتاباً ساخراً ناقداً بشدّة بعنوان: "خطبة لاذعة من الدكتور أكيكا"، الذي أثار غضب الملك فريديريك فأمر بإحراق كل نسخه والقبض على فولتير، وهو الذي رحّب به من قبل وفتح له أبواب بروسيا على مصراعيها.

أدرك العثمانيون أخيراً أنّ عليهم التعلّم من الغرب والاستفادة من منتجاته العلمية، خاصة بعد توسّعات الغرب في أوروبا والعالم الجديد. بدأ القصر يُرسل رحلات استكشافية من أجل تقصّي أسباب تنامي التفوّق العسكري الغربي، كما طرحوا تساؤلاً عن سبب قوة أمم مسيحية بعدما كانت في الماضي ضعيفة، وتمكنّها من ثم من السيطرة على بلدان كثيرة بل وإلحاق

الهزيمة بالجيوش العثمانية التي كانت مُظفّرة يوماً ما. لذا انتبه العثمانيون إلى أساليب الحكم الجديدة التي تبنّاها الغرب كالنظام البرلماني في إنجلترا مثلاً، والقوانين المدنية المستمدة من العقل والمنطق هناك في مقابل قوانين الشريعة التي تحكم الإمبراطورية العثمانية. أدرك العثمانيون أيضاً أنّ عليهم تعلّم العلوم العسكرية واعتناق الثورة العلمية والتنوير، إذا كانوا يرغبون في أن يكونوا في عِداد قوى العالم العظمى، فأدخلت المطبعة مثلاً لأوّل مرة سنة ١٧٢٨م، واستفادت إسطنبول أخيراً من تحسينات عسكرية ومدفعية من الغرب بعد معارضة دامية من الإنكشارية. أكدّ تقرير حكومي عثماني نُشر عام ١٨٣٨م الأهمية المستجدّة للمعارف الغربية: "تُساهم المعرفة الدينية في الخلاص في العالم الآتي، لكنّ العلم يُساهم في كمال الإنسان في هذا العالم."

دخلت الدولة العثمانية مرحلة عهد الإصلاحات، ورغم ما تميّز في ذلك المرحلة من محاولات إصلاحية إلّا أنّه من دون وجود نظام للضرائب يكفي لتمويل المشاريع الإصلاحية، اضطرت الدولة إلى الاستقراض من باريس ولندن لتدخل مرحلة من الانحطاط المميت، الذي بدأ من الهوامش عبر فقدانها لمساحات في البلقان واليونان والشام، وانتهى بالمركز في القصر، ما أدّى في النهاية إلى سقوط الإمبراطورية ونشوء دولة قومية على حدود الأناضول مع القائد مصطفى كمال أتاتورك.

نجح أتاتورك في بناء دولة جديدة تتجّه نحو الغرب باعتباره الحضارة الوحيدة القائمة، واليوم تتجّه تركيا نحو إحراز التفوق الاقتصادي والعلمي كذلك. في "الشرق الأوسط" تبرز "إسرائيل" كقوة نووية أولى وصاحبة أكبر قدر من براءات الاختراع مقارنة بكل جيرانها العرب وإيران. أمّا إيران فتتقدّم رويداً رويداً، رغم محاصرة الغرب، نحو امتلاك التقنية النووية، مُشجّعة البحث العلمي والعلماء. باكستان الدولة الاسلامية الأسبق إلى النووي وإلى حشد العلماء لأجل مصلحة الدولة. يرفض البلدين الأخيرين، أي إيران وباكستان، أغلب المنتجات الثقافية للحضارة الغربية، مع ذلك فهما يستمران في الاستفادة العلمية والعملية من التطوّر العلمي والتكنولوجي لها.. هنا يطرح فرغيسون السؤال التالي، بعد أكثر من ثلاثة قرون من حصار فيينّا، وهو: "إلى أيّ مدى سيبقى الغرب قادراً على المحافظة على تقدّمه العلمي، وهو التقدّم الذي اعتمد عليه طويلاً، من بين عوامل أخرى، في المحافظة على تفوّقه العسكري لهذه المدّة الطويلة؟". ثمّ يصيغ السؤال بشكل آخر: "هل تستطيع قوة غير غربية أن تأمل بالفعل الاستفادة من المعارف العلمية الغربية إذا ما استمرت في رفض ذلك الجزء الأساسي الآخر من الصيغة الغربية الرابحة: الابتكار المؤسسي، وحقوق الملكية الخاصة، وحكم القانون وحكومة تُمثّل شعبها بالفعل؟."

٣. المِلكية:

قُدّر أن يكون العالم الجديد (الأمريكيتين) عالماً غربياً، فالأوروبيون هم الذين عبروا الأطلسي لكي يستملكوا الأراضي الشاسعة، وهم الذين تنافست دولهم بالأرواح والأموال على ملكية الذهب والأراضي هناك، حيث تقاتلت إسبانيا وإنجلترا وتقاتلت أيضاً فرنسا وإنجلترا في حرب المئة عام.

يرى عدد من المؤرخين أنّ اكتشاف الأمريكيتين كان السبب الأساسي لصعود الغرب؛ فمن دون العالم الجديد لبقيت أوروبا الغربية منطقة صغيرة ومتخلّفة من أورواسيا، ولكانت لا تزال معتمدة على آسيا لنقل التقنية والثقافة والثروة، لم تكن "المعجزة الأوروبية" ولا الثورة الصناعية لتحدثا من دون تلك "الأراضي الشاسعة" والعبيد الأفارقة الذي كانوا يعملون فيها. إلّا أنّ فرغيسون يُفنّد هذا الادعاء ويرى بأنّه مبالغ فيه.

يُلقي فرغيسون الضوء على كميات الذهب والفضة التي استخرجها أو نهبها الغزاة الأوروبيون من مناطق المكسيك وأمريكا اللاتينية بعد قِتال سكانها الأصليين، كانت كميات هائلة نُقلت إلى أوروبا مباشرة. مثلاً يُسجل تزايد إنتاج الفضة بمرور الوقت، إذ ارتفع الوزن من ٥٠ طناً في السنة في مطلع القرن السادس عشر إلى ما يزيد على ٩٠٠ طن عام ١٧٨٠م. فيما بين عامي ١٥٠٠ و١٨٠٠م تمّ شحن ما قيمته بأسعار هذه الأيام نحو ١٠٩ مليارات جنيه إسترليني من هذا المعدن الثمين من العالم الجديد إلى أوروبا، وهذا بدوره سبب من أسباب ثراء أوروبا وقدرتها على تمويل مشاريعها وغزواتها الاستعمارية في ذلك الوقت.

كانت حقوق المِلكية في إنجلترا مضمونة، لكن ملكية الأراضي كانت بأيدي قلّة من الناس من طبقة النبلاء، والكنيسة ورجال الدين وكذا التاج الملكي. أمّا في أمريكا فقد كان حتّى أفقر الفقراء يمتلكون الفرصة للبدء بشراء الأراضي.

حدثت مقاومات وثورات أهلية منظمة في العالم الجديد ضدّ القادم الأوروبي، كما حدثت منافسات شديدة على الأراضي بين الأوروبيين ذاتهم لا سيما الإنجليز، والإسبان، والبرتغال والفرنسيين. أنتجت هذه الثورات المحلية والتنافس بين الغزاة المكتشفين شكل القارة الأمريكية كما نعرفها اليوم.

٤ .الطبّ:

رغم الوحشية الإمبريالية التي تميّزت بها دول أوروبا المستعمرة في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، إلّا أنّ فرغيسون يُصرُ على استعراض "إنجاز حضاري" للغرب في هذه المستعمرات خصوصاً القارة السمراء؛ ألا وهو الطب الحديث.

إنّ الأرقام تشرح ذلك بوضوح؛ إذ كان توقّع معدّل الأعمار عند الولادة عالمياً عام ١٨٠٠م لا يزيد عن ٢٥ إلى ٢٨ سنة فقط، لكن بعد مرور قرنين من الزمن تضاعف ذلك المعدل من ٦٠ إلى ٦٦ سنة، ولم نحصر هذا التحسّن بالبلدان الإمبريالية فقط. بدأ تحسّن الوضع الصحي في أوروبا الغربية بين سبعينيات القرن الثامن عشر وتسعينيات القرن التاسع عشر، كانت الدنمارك في الطليعة، في حين احتلت إسبانيا المرتبة الأخيرة.

تمكنت أوروبا، بفاعلية، من إزالة مخاطر أمراض التيفوئيد والكوليرا عشية الحرب العالمية الأولى؛ وذلك نتيجة للتحسينات التي أُدخلت على الصحة العامة والنظافة، أمّا في البلدان الآسيوية الحديثة الثلاثة والعشرين التي توافرت المعطيات عنها، باستثناء واحدة، فإنّ التحسّن في مجال الصحة قد حدث بين التسعينيات من القرن التاسع عشر وخمسينيات القرن العشرين. أمّا بالنسبة لأفريقيا، فإنّ التحسّن قد حدث بين عشرينيات القرن العشرين وخمسينياته، ما عدا استثناءين من أصل البلدان الثلاثة والأربعين. يعني ذلك أنّ توقّع الأعمار في البلدان الآسيوية والأفريقية بدأ بالتحسّن قبل نهاية الحكم الاستعماري الأوروبي.

ادّعى المستعمرون الأوروبيون، خاصة الفرنسيين منهم، أنّهم بصدد أداء "مهمّة حضارية" لتمدين الشعوب المتخلّفة في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، واجهوا مقاومات شعبية وثورات، كما وقف في طريقهم عدو فتّاك اسمه الأمراض والأوبئة، وأفريقيا كانت أحسن مختبر لذلك. في بريطانيا سنة ١٨٥٠م، كان توقّع الأعمار عند الولادة أربعين عاماً فقط. في أفريقيا كانت نسب الوفيات عند الأطفال، والوفيات عموماً، عالية بصورة مدهشة. أمّا توقّع الأعمار في السنغال في منتصف القرن التاسع عشر فقد كان ما بين أوائل العشرينيات ومنتصفها. كانت أفريقيا، لهذا السبب، ميدان اختبار للعامل الحاسم الرابع للحضارة الغربية: قدرة الطب على إطالة الحياة البشرية.

لم تكن أفريقيا الغربية تُعرف بأنّها مقبرة الرجل الأبيض من دون سبب: كان المشروع الاستعماري الأوروبي معرّضاً للخطر في مهده. يُعطينا النُّصُب الذي يرتفع في جزيرة غوري (تخليداً لذكري واحد وعشرين طبيباً فرنسياً لاقوا حتفهم أثناء تفشي وباء الحمّى الصفراء عام ١٨٧٨م) فكرةً عن المخاطر التي تعرّض لها الأوروبيون في أفريقيا. فتكت الأمراض الاستوائية فتكاً ذريعاً بالموظفين المدنيّين في المستعمرات الفرنسية. كان المسؤولون المتعاقدون في المستعمرات يموتون بما معدله ١٧ سنة قبل نُظرائهم في العواصم. تلقّى ما يقرب من ثلث عدد الأوروبيين في أفريقيا الغربية الفرنسية، والبالغ عددهم ١٦ ألف شخص، العلاج في المستشفيات لمدّة ١٤ يوماً في السنة، وحتّى الفترة المنتهية في عام ١٩٢٩م.

كانت الأحوال أقلّ سوءاً في أفريقيا البريطانية. وبذلت فرنساً جهوداً حثيثة في أفريقيا تحدّياً لأنواع الأمراض هناك، مُدركة أنّ مستقبل وجودها في هذه المستعمرات ومن ثم مستقبلها التنافسي مع جيرانها البريطانيين وغيرهم، يعتمد أساساً على إيجاد حلول جذرية لهذه الأوبئة التي تحول دون بقائهم هناك.

أسّس الفرنسيون مختبرات علمية وسط الغابات الأفريقية، كان أوّلها مختبرٌ أُسّس عام ١٨٩٦م، فأرسل العلماء والباحثون هناك لعلاج أمراض الكوليرا، والملاريا، والكَلب، والجُدري وغيرها. ألهمت فرنسا جيلاً كاملاً من المبتكرين الأوروبيين في حقل الصحّة. قام عالم الجراثيم الألماني روبرت كوخ باكتشاف (Vibrio Cholera) عام ١٨٨٤م، وهي البكتيريا التي تنقل الكوليرا، أي البكتيريا التي أودت قبل عام واحد بحياة لويس توبلييه الذي كان منافساً لكوخ. أمّا في هونغ كونغ، وفي عام ١٨٩٤م، فقد اكتشف عالم فرنسي آخر وهو ألكسندر يرسين العصويات المسؤولة عن وباء الطاعون الدبيلي. أمّا أوّل من شرح مسبّبات الملاريا ودور بعوض الملاريا في نقل ذلك المرض، بشكل كامل، فكان طبيباً في الخدمة الطبية الهندية يُدعى رونالد روس، وهو الذي عانى بنفسه من المرض. كما أنّ ثلاثة من العلماء الهولنديين تمركزوا في جاوا، أي كريستيان أيكمان، أدولف فوردرمان وجيريت جريجينز، هم الذين اكتشفوا أنّ مرض بري بري (نقص الفيتامين ألف) ناتج عن نقص في التغذية في الأرز المقشور (نقص الفيتامين ب١). أمّا آلدو كاستيلاني، وهو العالم الإيطالي، فقد أجرى أبحاثاً في أوغندا أدّت إلى التعرّف إلى طفيليات التريبانوسوما في ذبابة تسي تسي، وهي الذبابة المسؤولة عن مرض النوم. أمّا فريق الباحثين الذي كان يعمل مع جان لايجريه في معهد باستور في داكار، فقد كان أوّل من عزل الفيروس المسبّب للحمّى الصفراء، وهو الذي صنع اللقاح الذي يُؤخذ بطريقة بسيطة، أي من دون الحاجة إلى إبر معقّمة وحقن، لُقاحٌ طوّر ليُصبح ما عُرف فيما بعد بلقاح خدش داكار (أو لقاح بلتييه-ديوريو)، وهو يُوّفر حماية ضدّ الجدري.

كثُرت هذه الاكتشافات، وغيرها، في فترة ثمانينيات القرن التاسع عشر وعشرينيات القرن العشرين، وهي التي برهنت على أنّها هامة في إبقاء الأوروبيين، ومن ثمّ المشروع الاستعماري، حيّاً في المناطق الاستوائية. تحوّلت أفريقيا وآسيا بهذه الطريقة إلى مختبرات عملاقة للطب الغربي. كانت كلّما كثرت نجاحات هذه الأبحاث، وكلّما اكتشفت علاجات أكثر، امتدت معها الإمبراطوريات الأوروبية إلى مناطق أوسع، ورافقتها الفائدة العظمى المتمثّلة بإطالة الحياة البشرية.

كان الاستعمار في أفريقيا محدوداً في البداية في المستعمرات الساحلية. لكن، مع ظهور اختراق غربي آخر، مكنَنَة الحركة، تمكنت هذه الحركة من الامتداد داخل القارة. كانت السكك الحديدية، كتلك التي امتدّت من داكار إلى باماكو في مالي، ضرورية للمشروع الإمبريالي الغربي. أعلن ذلك تشارلز دي فريشينيه، الوزير الفرنسي للأشغال العامة عام ١٨٨٠م بقوله: "تنتشر الحضارة وتترسّخ عبر مسارات الاتصالات. تمتد أفريقيا أمامنا، وهي تتطلّب انتباهنا". أمّا بعد إنشاء الاتحاد الفرنسي في أفريقيا الغربية عام ١٨٩٥م، والذي امتدّ إلى ما وراء تمبكتو حتّى النيجر، فقد أوصل الحكم الفرنسي إلى نحو ما يزيد على عشرة ملايين إفريقي، وهو ما أصبح إحدى سمات الحكم الفرنسي. قال إرنست رومي أوّل حاكم للاتحاد: "إنّنا

نرغب في جلب الحضارة إلى المناطق البعيدة، الحضارة التي تسبّب تبصّر رجال دولتنا وشجاعة جنودنا ومستكشفينا في تقديمها لنا.. أمّا الشرط الضروري لتحقيق هذا الهدف فقد كان خطوط الاختراق هذه، وهي وسائل مثالية للنقل تعوّض غياب الوسائل الطبيعية للمواصلات، وهذا الغياب كان سبباً لبقاء هذه البلاد في حالة من الفقر والبربرية.. لا يمكن تحقيق الأنشطة الاقتصادية الحقيقية من دون السكك الحديدية هذه... يقتنع الجميع باستحالة تحقيق تقدّم مادي أخلاقي حقيقي في مستعمراتنا الأفريقية من دون السكك الحديدية". لقد أفادت هذه السكك في اكتشاف العمق الأفريقي، كما أفادت أيضاً في تحسين الوضع الصحي العام فيه، تحوّل الأمر إلى ما يشبه منظمة أطباء بلا حدود، لكن على طراز القرن التاسع عشر.

أمّا مع مطلع القرن العشرين فقد برزت ألمانيا في طليعة الحضارة الغربية، إذ حاز الأساتذة الجامعيون الألمان حصّة الأسد من جوائز نوبل للعلوم: ٣٣% من مجموع الجوائز الممنوحة ما بين عامي ١٩٠١-١٩١٠م، كما حازوا ما نسبته ٢٩% في العقد التالي من السنين. قادت الجامعات الألمانية العالم في ميدان الكيمياء والكيمياء الحيوية، وصارت ألمانيا مركزاً علمياً شديد الاحترام والأهمية في أوروبا. في خضمّ ذلك ظهرت نظريات عنصرية تُصنّف الجنس البشري إلى "جنس آري راقٍ" وأجناس أخرى غير راقية بل ربّما لا تنتمي إلى البشر أصلاً، فصارت أفريقيا على وشك أن تغدو مختبراً لهذه النظريات.

لا يعني ذلك أنّ بريطانيا وفرنسا لم تجعلا من أفريقيا مختبراً لاكتشافاتهما وأبحاثهما، فقد ارتكبتا جرائم بشعة في حق الإنسانية أثناء رحلة الاستكشاف الأوروبي الغربي لأفريقيا وآسيا على حدّ سواء، إلّا أنّ الألمان كانوا أشدّ شراسة منذ أن نزلوا على شواطئ جنوب غربي أفريقيا لأوّل مرّة سنة ١٨٨٤م، وشرعوا في تطبيق نظرياتهم الداروينية العنصرية على الأفارقة.

من بين الشعوب التي تعرضّت للإبادة كان شعب الهيرورو، وشعب النامبا في البلاد التي تُسمّى ناميبيا اليوم. قاد الشعبان تمرّداً ضدّ الألمان منذ وصولهم، كان عدد شعب الهيريرو قبل التمرّد نحو ٨٠ ألف شخص، بقي منهم على قيد الحياة فقط ١٥ ألف شخص. أمّا شعب النامبا فوصل عددهم عند إجراء الإحصاء الرسمي عام ١٩١١م إلى أقل من ١٠ آلاف شخص من أصل ٢٠ ألفاً.

قام الألمان بإبادة هذين الشعبين بكل الوسائل، فضلاً عن التجارب البيولوجية على المساجين، فقد كانوا أصلاً لا يرونهم بشراً يستحقون الحياة. كتب لودفيغ ديبي، وكان طبيباً عمل مع الجيش الألماني في شرق أفريقيا: "إنّنا نترك وراءنا حقولاً تالفة ومستودعات منهوبة ومجاعة للأيام القليلة التالية. لم نعد وكلاء الثقافة والمعرفة لأنّ الموت قد لطّخ مسارنا، وكذلك القرى المنهوبة التي هجرها أهلها، وهو ما حدث مع جيوشنا وجيوش أعدائنا خلال حرب الثلاثين عاماً". هذا إعتراف واضح بأنّ الغرب لم يكن في الحقيقة حامل لواء الحضارة والتمدين إلى الأمم الأخرى آنذاك كما يزعم.

٥ .الاستهلاك:

في هذا الفصل يتحدث فرغيسون عن تمكّن الغرب من تعويم العالم بسلعه، وبقدرته على ترويج ثقافته الأوروبية الغربية لتكتسح جميع أنحاء العالم، وتقهر العادات والتقاليد التي أَلِفها البشر في أصقاع كثيرة من العالم. يتساءل هنا فرغيسون عن الشيء: "المميّز في أزيائنا الذي يجعل الشعوب الأخرى غير قادرة على مقاومتها؟ هل ارتداء ملابسنا يتعلّق بالرغبة في أن يكونوا مثلنا؟". فيجيب: "يبدو واضحاً أنّ الأمر يتجاوز الملابس فقط. إنّه يتعلّق باعتناق ثراث ثقافي شعبي ممتد من

الموسيقى والأفلام، هذا إذا لم نقل شيئاً عن المشروبات الغازية والأطعمة السريعة. يحمل ذلك التراث الشعبي معه رسالة كامنة تتعلّق بالحرية (حقّ المرء في ارتداء الملابس أو الشرب والأكل كما يحلو له، حتّى ولو تبيّن أنّ الجميع يفعلون الأمر ذاته). يتعلّق الأمر كذلك بالديمقراطية (لأنّ الناس بالفعل يحبون صنع المنتجات الاستهلاكية). كما يتعلّق الأمر بالرأسمالية بطبيعة الحال؛ لأنّ الشركات مضطرة إلى جني أرباح عن طريق بيع المنتجات. إلّا أنّ الملابس تُعدُ في قلب عملية التغريب لسبب واحد وبسيط؛ فالتحوّل الاقتصادي العظيم الذي أطلق عليه رجال الاقتصاد منذ زمن طويل تسمية الثورة الصناعية، يعود بجذوره إلى صناعة النسيج في بريطانيا. لم تكن الثورة الصناعية لتبدأ ببريطانيا وتنتشر إلى بقية أنحاء الغرب من دون تطوير المجتمع الاستهلاكي الحيوي الذي رافقها، والذي تميّز بطلبه غير المحدود للملابس الرخيصة. تمثّل سحر التصنيع في كون العامل، في الصناعة، كان مستهلكاً في الوقت ذاته. لقد حافظ المجتمع الاستهلاكي على انتشاره هذه الأيام بحيث يسهل علينا الافتراض أنّه كان موجوداً على الدوام. لكن الواقع يوحي أنّ هذا المجتمع هو مِن أحدث الابتكارات التي دفعت الغرب إلى تجاوز بقية العالم. إنّ الميزة الأكثر دهاءً في ذلك المجتمع هي إغراؤه الذي يبدو أنّه لا يقاوم. لقد أراد العالم كلّه تقليد المجتمع الاستهلاكي الغربي، حتّى إنّ المجتمعات التي تميل بطبيعتها ضدّ الرأسمالية، المجتمعات الماركسية، عجزت عن مقاومة ذلك المجتمع واستبعاده. كانت نتيجة ذلك الوضع إحدى أعظم المفارقات في التاريخ الحديث: انتهى النظام الاقتصادي (الذي صُمّم من أجل تقديم خيارات لا حدّ لها للفرد) إلى توحيد البشرية."

عرفت بريطانيا منذ بداية الثورة الصناعية زيادة في مستوى دخل الأفراد، مترافقاً طبعاً مع الابتكارات التقنية المتتالية التي سهّلت الحياة الإنسانية. في الحقيقة كانت الثورة الصناعية لتكون بلا معنى لو أنّها اشتملت فقط على الزيادة الضخمة في كميّات المنتجات من الأقمشة والحديد والقوة الميكانيكية التي يُمكن إنتاجها خلال سنة من الزمن. أمّا الأمر الذي يحمل أهمية مساوية فقد كان التطوّر والانتشار السريعين لمجتمع الاستهلاك الذي أراد مزيداً من كلّ تلك الأشياء.

أنتجت الثورة الصناعية تقنيات وآلات عديدة متنوّعة لخدمة الحاجيات الإنسانية، قلنا إنّ أهمها كان آلات النسيج والخياطة التي أظهرت المجتمع الاستهلاكي في أوروبا، أشهرها كانت آلة سنجر للخياطة التي ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٥٠م. انتشرت هذه الآلة انتشاراً سريعاً إلى بقية مناطق العالم وصارت ماركة عالمية.

شهد العالم عام ١٩١٠م تكاملاً اقتصادياً بطريقة لم يشهدها من قبل. كانت الروابط المختلفة التي ربطت ذلك العالم معاً؛ السكك الحديدية وخطوط السفن العاملة بالبخار والتلغراف، مخترعات غربية في الغالب، ومملوكة من قِبل شركات غربية. تمكّن الغرب من تقليص المسافات التي تفصل بين مختلف مناطق العالم. لو جُمعت مثلاً كلّ خطوط السكة الحديدية في الولايات المتحدة من أولها إلى آخرها فسوف يماثل طولها ثلاثة عشر ضعف محيط الأرض. صارت السفن أيضاً تستوعب حمولة أكثر أثناء الشحن بسبب التحسينات التي أُدخلت عليها، فزادت عمليات شحن الملابس ومختلف السلع الاستهلاكية عبر العالم، وزاد معها انتقال الأيادي العاملة عبر الحدود بشكل لم يسبق له مثيل.

هاجر في الفترة ما بين ١٨٤٠ و١٩٤٠م نحو ٥٨ مليون شخص أوروبي إلى الأمريكيتين و٥١ مليوناً من الروس إلى سيبيريا وآسيا الوسطى ومنشوريا، وهاجر ٥٢ مليوناً من الهنود والصينيين إلى جنوب شرقي آسيا وأستراليا الآسيوية أو منطقة حوض المحيط الهندي. سافر نحو ٢,٥ مليون مهاجر من جنوب آسيا وشرقها إلى الأمريكيتين. أمّا عام ١٩١٠، فكان واحد من أصل سبعة أشخاص من سكان الولايات المتحدة مولوداً خارج البلاد، وهي نسبة قياسية لم تُكسر حتّى الآن.

تنقلّت الرساميل بدورها حول الكرة الأرضية، وأدّت بريطانيا دور "مصرف العالم" وصدّرت كميات ضخمة من الرساميل إلى بقية أنحاء العالم. جهزت الشركات البريطانية نفسها أيضاً لتصدير القطن والآلات اللازمة لصناعته ورأس المال الضروري لشراء هذه الآلات. ربّما يكون كلّ ذلك هو المظهر المدهش لأوّل عملية عولمة. اكتسح نمط الملابس الغربي أنحاء العالم كافة بسرعة هائلة، وهكذا انتقلت الملابس التقليدية إلى سلّة مهملات التاريخ.

اندلاع الحربين العالميتين الأولى والثانية شجّع أيضاً معامل النسيج على إنتاج مزيد من البدلات والملابس العسكرية، وانتهاء الحربين أيضاً شجّع الشعوب المتضرّرة من الحرب على إعادة اقتناء كثير من المنتجات الضرورية للحياة الإنسانية، بعد أن عادت المصانع والمعامل إلى العمل من جديد لتغطية الأضرار الناجمة عن الحرب.

أثناء الحرب الباردة بدأت دول شرق وجنوب شرق آسيا تبرز كدول ذات اقتصاديات رأسمالية صاعدة، أفادت الدول الآسيوية كثيراً من النظام الاقتصادي العالمي الذي تزايد في الانفتاح، وهو الذي تمسّكت به الولايات المتحدة. لم يُقدّم المجتمع الاستهلاكي نموذجاً لدول شرق آسيا، بل وفّر كذلك سوقاً للثياب الرخيصة التي تنتجها. يذهب فرغيسون للقول بأنّ دول شرق آسيا قد أفلتت من حقل التأثير السوفياتي لأنّها أصبحت شريكاً في المجتمع الاستهلاكي الأمريكي.

عرف الغرب أيضاً ظهور اللباس العالمي المعروف باسم الجينز. تحوّلت هذه السلعة في سبعينيات القرن العشرين إلى أكثر الثياب شعبية في العالم، بل تحوّلت إلى رمز سياسي قوي لأوجه الخطأ في النظام الاقتصادي السوفياتي. لماذا عجز السوفيات عن تقليد سروال ليفي ٥٠١ بالطريقة التي قلّدوا بها القنبلة الذرية؟ لقد تمكّن الغرب من ترويج هذه السلعة لتصير موضة عالمية بفضل ما يمكن اعتباره أنجح صناعتين عرفهما القرن العشرين: السينما والتسويق. ارتدى الجينز الفنانون، والممثلون، وعارضو الأزياء بل حتّى الرؤساء. كان نمو مبيعات ليفي شترواس مذهلاً. تمكّنت الشركة من بيع ٤ ملايين عام ١٩٥٩م. زادت مبيعات ليفي عشرة أضعاف ما بين عامي ١٩٦٤-١٩٧٥م عندما تخطّت ١٠ مليارات. وصلت هذه المبيعات إلى مليارَي سروال عام ١٩٧٩م. كانت ليفي واحدة فقط من الماركات المتنافسة والناجحة مثل لي ورانغلر. تمتّعت هذه الملابس الأمريكية بجاذبية عند غير الأمريكيين، الأمر الذي بدا بوضوح عندما أطلق ليفي حملة تصدير في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي. رأى جيل الشباب أنّ الجينز يرمز إلى الثورة ضدّ تقاليد الملابس القديمة التي كانت سائدة في فترة ما بعد الحرب. أعلنت مجلة لايف عام ١٩٧٢م أنّ: "العالم أصبح الآن بلاد الجينز الأزرق."

هذه العالمية التي حقّقها سروال الجينز ليفي سبقها أو لحقها اكتساح عالمي مشابه لمشروب الكوكاكولا العالمي، ثم أطعمة الماكدونالز و KFCوما شابه، وكلّها صنَعت المجتمع الاستهلاكي الغربي الذي صار عالمياً حقاً مع انتشار وسائل الاتصال ثمّ التواصل الاجتماعي أخيراً.

بالمختصر المفيد، تُعبِّر الملابس خصوصاً (أكثر من أي سلعة أو منتوج آخر) عن وجود مجتمع استهلاكي على الطريقة الغربية في أيّ منطقة من العالم، فالملابس التي يرتديها الناس مهمّة جدّاً. هنا يرى فرغيسون أنّ القفزتين الاقتصاديتين اللتين حقّقهما الغرب؛ أي الثورة الصناعية والمجتمع الاستهلاكي، تعلّقتا بالملابس إلى حدّ كبير. لا يمكننا فصل الطريقة الغربية لارتداء الملابس عن انتشار طريقة الحياة الغربية في العالم، وانتشار ثقافة الغرب أيضاً في كلّ بقاعه.

٦. العمل:

هناك آراء وطروحات كثيرة ترى بدور المسيحية الفاعل في بلورة الحضارة الغربية في مراحلها الأولى، على غرار غيبون صاحب كتاب "انحدار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها". منح الإصلاح الديني البروتستانتي دفعة متجدّدة للحضارة الغربية لتنهض من جديد بروح أخرى، فكانت تعاليم لوثر وخلفاؤه تعاليم مشجّعة على العمل الجاد بين الناس، بل على مراكمة رأس المال أيضاً.

وبرز الأستاذ الألماني ماكس فيبر (مؤسس علم الاجتماع الحديث) كأحد أكثر الشخصيات العلمية المفسّرة والشارحة لأثر هذه الروح البروتستانتية الجديدة على الحضارة الغربية، حينما صاغ مؤلَّفه الشهير "الأخلاق البروتستانتية."

كان يُنظر إلى الإيمان الديني المسيحي، حتّى عصر الإصلاح، على أنّه أمر متميّز عن المسائل المادية لهذا العالم. كان إقراض المال مع الفائدة يُعدُّ خطيئة، كما أنّ حظوظ الأثرياء في دخول مملكة السماء أقل من حظوظ الفقراء. أمّا مكافأة عيش حياة دينية فكانت في العالم الآخر. تغيّر كلّ ذلك بعد العشرينيات من القرن السادس عشر، أقلّه في البلدان التي تبنّت الإصلاح.

قام ماكس فيبر بجولات في أوروبا وأمريكا بحثاً عن الأمور الكامنة وراء عملية الإصلاح. بوصوله إلى أمريكا أصيب الرجل بالدهشة لِما رآه هناك. سافر فيبر بالقطار من سانت لويس إلى أوكلاهوما، ومرّ عبر مدن ميسوري مثل بوربون وكوبا، وقد أدرك الأمر أخيراً: "هذا المكان مذهل حقّاً؛ معسكرات العمال، وخصوصاً العمال المختصّين ببناء السكك الحديدية العديدة قيد الإنشاء، والشوارع بحالتها الطبيعية والتي عادة ما يجري رشّها بالبترول من أجل تجنّب الغبار فتفوح منها رائحته، والكنائس الخشبية التي تعود إلى أربع أو خمس طوائف.. أضف إلى ذلك أسلاك الهاتف والتلغراف المتشابكة، وخطوط القطارات الكهربائية التي هي قيد البناء؛ وذلك لأن المدينة تمتّد لمسافات لا حدّ لها". أُعجِب فيبر بذلك التحالف المقدّس القائم ما بين النجاح المادي الذي حقّقته أمريكا وحياتها الدينية النشطة.

كتب فيبر لدى عودته إلى مكتبه في هيدلبيرغ الجزء الثاني من مقالته الشهيرة المؤلفة من قسمين، والتي كان عنوانها "الأخلاقيات البروتستانتية وروح الرأسمالية". احتوت المقالة على أكثر الحجج والآراء تأثيراً عن الحضارة الغربية: كانت الحيوية الاقتصادية نتيجة غير مقصودة لحركة الإصلاح البروتستانتية. رأى البروتستانت في الصناعة والتوفير تعبيراً عن نوع جديد من التقوى الناتجة من العمل الجاد. أمّا الأديان الأخرى، فقد ربطت، بحسب فرغيسون، ما بين القداسة والتخلّي عن الأمور الدنيوية، وهكذا بقي الرهبان في الأديرة والنُسّاك في الكهوف.

كان "نداء" الرأسمالية، بكلمات أخرى، ديناً في الأصل: "من أجل التوصّل.. إلى الثقة بالنفس.. فإنّ الأنشطة الدنيوية الكثيفة هي أمر يُنصح به.. ولذلك، فإنّ الزهد المسيحي.. تطوّر إلى سوق تضجّ بالحياة". قال فيبر إنّ "عدم التعب من العمل" هو العلامة الأكيدة على انتماء المرء إلى النخبة، "وهي تلك المجموعة من الناس التي كتب الله عليها الإنقاذ". رأى فيبر أنّ البروتستانتية "تمتلك القدرة على تحرير تملّك الثروة من قيود الأخلاقيات التقليدية، وهي تكسر القيود المفروضة على السعي وراء المكاسب، ليس عن طريق تشريعها فحسب، بل بوصفها إرادة مباشرة من الله". يُضاف إلى ذلك أنّ الأخلاقيات البروتستانتية زوّدت الرأسمالي بعمّال "جادّين وواعين وذوي قدرات استثنائية، وهم مخلصون للعمل بوصفه هدف هذه الحياة كما أراده الله". رأى فيبر أنّ: "أخلاقيات العمل هذه هي التي أنتجت الرأسمالية الحديثة، التي عرّفها بأنّها رأسمالية جادة وبروجوازية وذات تنظيم عقلاني للعمل الحر."

افترض فيبر أنّ للبروتستانية أثراً جيّداً في تحفيز المجتمعات ونموها السريع. لاحظ فيبر أنّ البلدان البروتستانتية في أوروبا كانت أكثر نمواً وسرعة من البلدان الكاثوليكية، فقد تجاوزت الأولى الثانية عام ١٧٠٠م في مدخول الفرد. أمّا في عام ١٩٤٠م، فكانت أوضاع الناس في البلدان الكاثوليكية أسوأ بنسبة ٤٠ بالمئة عمّا كانت عليه الحال في البلدان البروتستانتية. يُلاحظ كذلك بأنّ مستعمرات البلدان البروتستانتية السابقة كانت أوضاعها أفضل من الناحية الاقتصادية ممّا كانت عليه مستعمرات البلدان الكاثوليكية السابقة منذ الخمسينيات من القرن الماضي. لقد شجّعت البروتستانتية على تعلّم القراءة، هذا إن لم نقل الطباعة، وهذان الأمران شجّعا من دون شكّ التنمية الاقتصادية (مراكمة الرأسمال البشري) بالإضافة إلى الدراسات العلمية.

ربّما تكون أكبر مساهمة للدّين في تاريخ الحضارة الغربية هي أنّ البروتستانتية لم تجعل الغرب ينجح فحسب، لكنّها جعلته ينتقد ويقرأ كذلك. كانت الثورة الصناعية، بالفعل، نتيجةً للابتكارات التقنية والاستهلاك. لكنّها تطلّبت كذلك زيادة في كثافة العمل ومدّته، وذلك بالإضافة إلى مراكمة رأس المال عن طريق التوفير والاستثمار. لكنّ الثورة الصناعية اعتمدت، قبل كلّ شيء، على مراكمة رأس المال البشري. كانت المعرفة التي روّجتها البروتستانتية عاملاً حيوياً في كلّ تلك الأمور.

يطرح فرغيسون، في هذا الصدد، سؤالاً مهمّاً: "هل خسر الغرب، في هذه الأيام، الدّين والأخلاقيات التي ترافقه؟."

يرى فرغيسون أنّ الأوروبيين يُعدّون هذه الأيام كُسالى العالم. إنّهم يعملون، في المعدّل، ساعات أقل من الأمريكيين، وأقل بكثير من الآسيويين. على سبيل المثال، فإنّ ٥٤% من البلجيكيين واليونانيين من الذين تتجاوز أعمارهم ١٥ سنة يشاركون في القوى العاملة، وذلك مقارنة بـ٦٥% من الأمريكيين و٧٤% من الصينيين. كانت نسبة أعلى في أوروبا من بين تلك القوى العاملة عاطلة عن العمل في السنوات ما بين ١٩٨٠-٢٠١٠م. يُضاف إلى ذلك أنّ الأوروبيين هم على استعداد أكبر للإضراب عن العمل.

أمّا الأهمّ من ذلك كلّه، فهو أنّ الأوروبيين يعملون ساعات أقل بفضل أيام العمل الأقصر وأيّام الإجازات الأطول. في الفترة ما بين ٢٠٠٠-٢٠٠٩م، عمل الموظّف العادي الأمريكي ساعات تقل عن ١٧١١ ساعة في السنة. أمّا الألماني العادي فقد عمل ١٤٣٧ ساعة فقط، أي ١٦% أقل. كانت الفروق ما بين ساعات العمل الأمريكية والأوروبية عام ١٩٧٩م ضئيلة، أمّا هذه الأيام فإنّ العامل الإسباني المتوسّط يعمل ساعات أكثر من ساعات الأمريكي العادي في المتوسط. إلّا أنّ الياباني العادي لا يزال يعمل لساعات تماثل ساعات الأمريكي العادي، في حين يعمل الكوري العادي ساعات هي أكثر بنسبة ٣٩%. أمّا السكان في هونغ كونغ وسنغافورة فيعملون ساعات أكثر ممّا يعمله الأمريكيون بنسبة الثلث.

أمّا الأكثر إدهاشاً فهو أنّ ذلك الفرق في أنماط العمل على جانبي الأطلسي قد تطابق تماماً مع فارق مُماثل في الإيمان الديني. لا يقتصر الأمر على أنّ الأوربيين يعملون ساعات أقل، ولكنّهم يُصلّون أقل كذلك ويؤمنون بدرجة أقل. في الصدد ذاته يورد فرغيسون أرقاماً مذهلة عن تنامي "الإيمان المسيحي" في الصين، في مقابل تراجعه الشديد في الغرب؛ فحسب ما أوردته استطلاعات مستقلة أجرتها كلّ من مؤسستي (East China Partner) و(China Normal University in Shanghai)، فإنّ هناك نحو ٤٠ مليون مسيحي بروتستانتي في الصين، وذلك مقارنة بأقلّ من نصف مليون في العام ١٩٤٩م. ترفع بعض التقديرات الحدّ الأقصى لهذا العدد حتّى ٧٥ أو ١١٠ ملايين. أمّا إذا أضفنا ٢٠ مليون كاثوليكي، فسوف يرتفع عدد المسيحيين في الصين حتّى ١٣٠ مليوناً.

ربّما يكون عدد الملتزمين من المسيحيين في الصين أكثر من عددهم في أوروبا. يذكر كذلك أنّ سرعة بناء الكنائس في الصين هي أعلى ممّا هي في أي مكان آخر في العالم، كما تُطبع هناك نسخٌ من الإنجيل هي أكثر ممّا يُطبع في أيّ بلد آخر. وتُعدُّ شركة نانجينغ آميتي للطباعة أكبر منتج للأناجيل في العالم. وقد أخرجت مطابع هذه الشركة منذ تأسيسها عام ١٩٨٦م أكثر من ٧٠ مليون نسخة، ويشمل هذا الرقم ٥٠ مليون نسخة بلغة الماندرين واللغات الصينية الأخرى. وربّما في غضون ثلاثة عقود قادمة من الزمن، سوف يُمثّل المسيحيون ما بين ٢٠ و٣٠% من الصينيين.

تُعدُّ هذه المعلومات مدهشة، عندما نتذكّر المقاومة التي لقيها انتشار المسيحية عبر التاريخ الصيني. يرى هانبينغ جانغ (وهو مسيحي ملتزم ورئيس شركة آي هاو التي تُعدُّ من كبرى ثلاث شركات منتجة للأقلام في العالم) أنّ المسيحية ازدهرت في الصين لأنّها تُقدّم هيكلية أخلاقية للأشخاص الذين يكافحون في مرحلة تحوّل اجتماعي سريع من الشيوعية إلى الرأسمالية بشكل مذهل. يُسجّل فرغيسون هنا حالات صارت ظواهر لانتشار المسيحية واعتناقها بقوة في الصين. يتوقع تانج يي، أحد الأكاديميين الصينيين، أن يتمكّن "الدّين المسيحي من التغلّب أخيراً على الصين، وأن يحوّل الثقافة الصينية إلى ثقافة مسيحية". إنّ المسيحية في نظر بعض الصينيين هي العامل الكامن وراء قوة الغرب في العالم، يقول أحد الباحثين من الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية: "طلب إلينا تفحّص الأسباب التي وقفت وراء... بروز الغرب في كلّ أنحاء العالم... اعتقدنا في البداية أنّ السبب يعود إلى أنّكم تمتلكون مدافع أقوى بكثير من تلك التي نمتلكها نحن. اعتقدنا بعد ذلك أنّ السبب يعود إلى أنّكم تمتلكون أفضل النُّظم السياسية. ركزّنا بعد ذلك على نظامكم الاقتصادي. لكنّنا أدركنا خلال السنوات العشرين الماضية أنّ دينكم، أي المسيحية، هو في قلب ثقافتكم. هذا هو السبب الذي جعل الغرب قويّاً إلى هذه الدرجة. إنّ الأساس الأخلاقي المسيحي للحياة الاجتماعية والثقافية هو الأمر الذي سمح بظهور الرأسمالية، ثمّ جاء بعد ذلك التحوّل الناجح إلى السياسات الديمقراطية. ليس لدينا أيّ شكّ في هذا الأمر."

ذكر أكاديمي آخر، وهو زهاو كسين بينغ، "الفهم المسيحي للتفوق" على أنّه هو الذي أدّى "دوراً حاسماً جدّاً في قبول الناس التعدّدية في المجتمع والسياسة في الغرب المعاصر". يوافق يوان جي مينغ، وهو منتج أفلام شهير، على هذا عندما يقول: "إنّ أهمّ شيء هو جوهر الحضارة الغربية.. هو المسيحية". يقول الأستاذ الجامعي زهاو كسياو إنّ المسيحية تُقدّم للصين "أساساً أخلاقياً مشتركاً" قادراً على تقليص الفساد، وتقليص الهوّة ما بين الأغنياء والفقراء، وعلى تشجيع الإحسان وحتّى الحدّ من التلوّث.

في مقابل تزايد نسبة "الإيمان المسيحي" في الصين، يشير فرغيسون إلى "تآكل" الإيمان المسيحي في الغرب عموماً وغربي أوروبا على وجه التحديد، وشيوع الإلحاد أو مذهب اللاأدرية وما شابه من عقائد لا تُقدّم شيئاً من شأنه أن يُعزّز الاقتصاد أو يُؤمّن التماسك الاجتماعي مثلما فعلت البروتستانية من قبل. أمّا الأسوأ من ذلك، كما يقول، فإنّ هذا الخواء الروحي يترك مجتمعات غربي أوروبا عُرضةً لطموحات مؤذية عند قلّة من الناس الذين يمتلكون الإيمان الديني، بالإضافة إلى الطموح السياسي بتوسيع قوة نفوذ دينهم في البلاد التي تبنّوها. مثلاً يوجد الكثير وراء تصوير الصراع ما بين "الإسلام المتطرف" والحضارة الغربية على أنّه "الجهاد مقابل عالم ماكدونالدز."

خاتمة:

المتنافسون:

في الخاتمة يستعرض صاحب الكتاب، بشكل سريع، أسماء باحثين درسوا الحضارة وتحدثّوا عن دورتها القائمة على التعاقب، على غرار ابن خلدون، وشبينغلر، وتوينبي، وبول كنيدي ويارد دياموند، مشيراً إلى العامل الأساسي الذي اتّخذه بعض هؤلاء لتفسير مسألة سقوط الحضارات أو الإمبراطوريات الكبرى. وبالرغم من كلّ ما قاله هؤلاء، إلّا أنّهم قد يكونون تبنّواً منظوراً خاطئاً من الأساس، كما يدّعي فرغيسون. يقول: "ماذا لو لم يكن التاريخ دورياً وبطيء الحركة، لكنّه ليس إيقاعياً، حتّى إنّه يكون في بعض الأحيان ساكناً، وقادراً مع ذلك على التسارع العنيف؟ وماذا لو كان الزمن التاريخي لا يشبه إلّا قليلاً التغيّر البطيء والقابل لتوقّع الفصول، وأكثر شبهاً بالزمن المطاطي لأحلامنا؟ أمّا الأهمّ من ذلك كلّه، فهو ماذا سيحدث إذا كانت عملية الانهيار لا تستغرق قروناً من الزمن، لكنّ الانهيار يضرب الحضارة على حين غرّة، مثلما يأتي اللّص في الليل؟... إنّ الحضارات أنظمة معقدّة، تتألّف من عدد كبير جدّاً من المكوّنات المنظّمة المتفاعلة غير المتماثلة.. تعمل الحضارات بطريقة وسط ما بين النظام واللانظام أي "على حافة الفوضى" حسب تعبير عالِم الكمبيوتر كريستوفر لانغتون. تبدو أنظمة كهذه وكأنّها تعمل بثبات تام لبعض الوقت، وبتوازن تام في الظاهر، لكنّها في الحقيقة لا تكفّ عن التكيّف. لكن تمرّ لحظة عندما تصبح أوضاعها "حرجة". وحينها، فإنّ قدراً من الاضطراب يكفي لإطلاق "تحوّل مرحلي" من التوازن البريء إلى الأزمة. تتمكّن ذرّة واحدة من الرمال من زعزعة قلعة الرمال المنيعة في الظاهر، وذلك قبل أن تنهار متكوّمة على نفسها."

بدأتُ هذا الكتاب، بقول فرغيسون، بسؤال رسيلاس: "كيف تمكّن الأوروبيون... من أن يصبحوا أقوياء بهذا الشكل؟". يسهل الآن تقديم إجابة أفضل عن هذا السؤال كما يقول: "ذلك أنّ الغرب طوّر ستة استخدامات أو تطبيقات استثنائية افتقدها بقية العالم:

١.**المنافسة**، التي برزت في أوروبا ذاتها التي كانت مجزّأة سياسياً، وتلك التي ظهرت في كلّ مملكة أو جمهورية حيث ظهرت شركات متنافسة.

٢ .**الثورة العلمية**، التي بدت في كلّ الاختراقات الكبيرة التي قدّمتها أوروبا الغربية في القرن السادس عشر في ميادين الرياضيات، وعلم الفلك، والفيزياء، والكيمياء وعلم الأحياء.

٣ .**حكم القانون**، والحكومة التمثيلية، الأمر الذي تجسّد في العالم الناطق بالإنجليزية بشكل نظام اجتماعي وسياسي مثالي يستند إلى حقوق الملكية الخاصة، وإلى تمثيل مالكي العقارات في مجالس تشريعية منتخبة.

٤ .**الطبّ الحديث**، الذي ظهر في معظم مجالات الاكتشافات الرئيسية التي ظهرت في القرنين التاسع عشر والعشرين، وعلى الخصوص في ميادين العناية الصحية، بما في ذلك السيطرة على الأمراض الاستوائية، وهي الاكتشافات التي ظهرت على أيدي الأوربيين الغربيين والأمريكيين الشماليين.

٥ .**المجتمع الاستهلاكي**، من حيث حدوث الثورة الصناعية في المكان الذي توافر فيه عرض التكنولوجيات التي تعزّز الإنتاجية، وكذلك طلب المزيد من السلع الأفضل والأرخص، وذلك بدءاً بالملابس القطنية.

٦ .**أخلاقيات العمل**، من حيث كون الغربيين أوّل شعب في العالم يمزج ما بين العمل الشامل والمكثّف ونسب ادّخار أعلى؛ ممّا يسمح بمراكمة مستمرة لرأس المال."

كانت هذه الاستخدامات الاستثنائية الستّة هي مفتاح الصعود الغربي.

في الصفحات الأخيرة من كتابه هذا يتحدّث فرغيسون عمّا اصطُلِح على تسميته "بانتقال القوة نحو الشرق"، في إشارة إلى ذلك التحوّل السريع والضخم الذي يشهده النظام الدولي في القرن الحادي والعشرين فيما يخصّ توزيع مُقدّرات القوة فيه، والتي ارتكزت لمدّة تُقارب خمسة قرون من الزمن في الغرب (أوروبا الغربية، وأمريكا الشمالية وأستراليا، ونيوزيلاندا وغينيا الجديدة..)، منتقلة هذه المرّة إلى شرق آسيا والصين على وجه أخصّ، التي تحتضن على أراضيها "أعظم وأسرع نهضة عرفها التاريخ" على حدّ تعبير فرغيسون.

تمكّنت الصين من تفعيل التطبيقات الحاسمة الستّ التي استخدمها الغرب في نهضته، وها هي اليوم تتقدّم العالم بأسره في جميع المجالات الحيوية. يبلغ الناتج الإجمالي المحلي للفرد في الصين ١٩% ممّا هو عليه في الولايات المتحدة، وذلك مقارنة بنسبة ٤% كانت عند بدء الإصلاح الاقتصادي قبل ما يزيد على ثلاثين عاماً تقريباً... تُعدُّ الثورة الصناعية في الصين أكبر وأسرع ثورة صناعية في العالم. زاد ناتجها القومي المحلي في غضون ٢٦ سنة بمضاعف يبلغ عشرة. استغرقت المملكة المتحدة ٧٠ عاماً بعد عام ١٨٣٠م لتنمو بمضاعف يبلغ أربعة. توقّع اقتصاديون في غولدمان ساكس قبل الأزمة المالية، أنّ الصين سوف تتجاوز الولايات المتحدة في مجال الناتج القومي المحلي ي العام ٢٠٢٧م. لكنّ الأزمة المالية قلّصت النمو في الولايات المتحدة أكثر من نسبة النمو الصينية. لهذا السبب توقّع فرغيسون أنّه إذا استمرت النسب الحالية على ما هي عليه، فإنّ الاقتصاد الصيني يُمكن أن يتجاوز الاقتصاد الأمريكي عام ٢٠١٤ فيما يتعلق بالقوة الشرائية، ليضيف أنّه يمكننا القول بأنّ القرن الآسيوي قد بدأ بالفعل.

إنّ الصين هي الآن على وشك أن تتجاوز حصّة أمريكا من الناتج العالمي، وذلك بعد أن تجاوزت ألمانيا واليابان منذ بداية القرن الجديد. أمّا أكبر مدينة في الصين، أي شنغهاي، فهي منذ الآن أكبر بكثير من أي مدينة أمريكية، كما أنّها تتربّع على عرش اللائحة الجديدة لكبرى مدن العالم غير الغربية.

في مقابل ذلك يشهد الغرب تدهوراً في مجالات عديدة؛ كان الغرب سنة ١٩٥٠م يقطنه ٢٠% من سكان العالم، أمّا سنة ٢٠٥٠م، وبحسب الأمم المتحدة، فإنّ هذا الرقم سوف يكون ١٠% (في مقابل اعتبار آسيا والصين خصوصاً أكثر منطقة مأهولة في العالم). تُشير معطيات صاموئيل هنتنغتون الخاصة به إلى انحدار الغرب في عدّة مجالات مختلفة: اللغة (انخفضت حصّة الغرب بثلاث نقاط مئوية ما بين عامي ١٩٥٨-١٩٩٢م)، والدَّيْن (انخفاض يقلّ قليلاً عن نقطة مئوية واحدة ما بين عامي ١٩٧٠-٢٠٠٠م)، والمساحة المسيطر عليها (انخفضت قليلاً ما بين عامي ١٩٧١-١٩٩٣م)، والسكان (انخفاض بنسبة ثلاث نقاط مئوية مند العام ١٩٧١م)، والناتج الإجمالي المحلّي (انخفاض بما يزيد على ٤ نقاط مئوية ما بين عامي ١٩٧٠- ١٩٩٢م)، وفي مجال أعداد الجنود في الجيوش (انخفاض بنحو ٦ نقاط مئوية ما بين عامي ١٩٧٠-١٩٩١م).

كان هذا الانحدار أشدّ حدّة نسبياً في معظم الحالات إذا احتُسب بدءاً بالعام ١٩١٣ و١٩٣٨م. يجب علينا أن نفهم الأزمة المالية التي بدأت في صيف عام ٢٠٠٧م على أنّها عامل مُسرّع لاتجاه فرضَ نفسه مسبقاً للانحدار الغربي. تُشبه هذه الأزمة الركود الاقتصادي الكبير شبهاً كبيراً، وهي في غير مصلحة الغرب دوماً.

يقول فرغيسون: "إنّنا نعيش الآن في مرحلة نهاية ٥٠٠ سنة من الهيمنة الغربية. إنّ المتحدّي الشرقي هذه المرّة هو حقيقي بما فيه الكفاية، سواء أكان اقتصادياً أم جيوسياسياً. لكن ما زال مبكّراً جدّاً بالنسبة للصينيين الادّعاء "أنّنا أسياد العالم"، إلّا أنّ الواضح تماماً أنّهم لم يعودوا مجرّد متمرّنين. يبقى، بالرغم من كلّ ذلك، صراع الحضارات الذي قال به هنتنغتون احتمالاً بعيداً. سنشهد على الأرجح نوعاً من التحوّل الذي كان لمصلحة الغرب في معظم فترة الـ ٥٠٠ سنة الماضية. تزداد إحدى الحضارات ضعفاً، في حين أن حضارة أخرى تتقوّى أكثر فأكثر. لا يتمثّل السؤال الهام هنا إن كانت الحضارتان ستصطدمان، بل إن كانت الحضارة الأضعف ستقفز من حالة الضعف إلى حالة الانهيار التام."

يختم فرغيسون كتابه بفقرة تُعبّر عن قلقه الأكبر حيال حضارته الغربية، فيقول: إنّ "الحضارة لن تدوم، والحرية لن تبقى والسلام لن يُخيّم، إلّا إذا اتحدّت غالبية كبيرة جدّاً من البشر من أجل حمايتها، وإلّا إذا أظهرت هذه الغالبية أنّها تمتلك سلطة حفظ الأمن، وهي السلطة التي يجب أن تخيف القوى البربرية الغرائزية.. ظهرت تلك القوى البربرية والمتخلّفة عام ١٩٣٨م في الخارج وعلى الخصوص في ألمانيا. لكن كانت تلك نتاج الحضارة الغربية، ذاتها، بمثل ما كانت عليه قيَم الحرية والحكومات الشرعية التي كانت عزيزة على قلب تشرشل. أمّا هذه الأيّام، وكما كان الحال في ذلك الوقت، فإنّ أكبر تهديد يواجه الحضارة الغربية ليس ذلك الصادر عن الحضارات الأخرى، بل هو ذلك الجُبن الذي يُسيطر علينا وكذلك جهلنا التاريخي الذي يُغذّيه ."